

زكرياء غونام

في المحطة البيضاء



رواية

في المحطة البيضاء

رواية



زكرياء غونام

في المحطة البيضاء

رواية



معلومات

الناشر :
دارالوطن
للطباعة والنشر
7، زنقة الكوفة، الرباط 10000 -
المملكة المغربية
الهاتف الأرضي: +212537702120
الهاتف الجوال: +212673420256
البريد الإلكتروني:
daralwatan2018@gmail.com
صفحة فيس بوك:
facebook.com/daralwatan2020

الكتاب : في المحطة البيضاء
الكاتب : زكرياء غونام
الصف : رواية
اللغة : العربية
عدد الصفحات : 86
الحجم / المقاس : 21x15 سم
التدقيق اللغوي : دار الوطن
لوحه الغلاف الفنانة فدوى كدور
الإخراج الفني و الغلاف: هند الساعدي
الطبعة الأولى : 2024
السحب: مطبعة بلال

رقم الإيداع القانوني: 2024MO2643

ر.د.م.ك : 1-11-542-9920-978 ISBN

حقوق الطبع محفوظة للكاتب



قال لي صديق ذات مرة، ونحن نحتسي قهوتنا الدافئة بجوانب الكلية، ونتفرس في وجوه الناس:

”عاملة النظافة تكنس الغبار وإلى ما شابه، وتلقي نظرة على طلبة الكلية يمرون أمامها واحدا تلو الآخر، يلوحون بكتبهم وبأفكارهم المستخلصة. تحدد بعد كل نفس جديد تأخذه، لا أدري في ماذا تفكر؟ لكن الظاهر تمنيتها أن تكون مكان أي أحد من الطلاب، وربما ليس هذا ما تفكر فيه، ربما لا ترى الطلاب فقط وإنما الأساتذة، وتتمنى لو كانت مكان أحدهم... رأيت كيف تربط متمنيات الناس بمراتبنا، ولا تمنحهم حق التمني فيما هو أرفع من مراتبنا؟“

«إن مشيت على شارع لا يؤدي إلى هاوية.
قل لمن يجمعون القمامة: شكرا».

محمود الدرويش

إهداء

أُهِدِيكُمُ الْبَيْضَاءَ يَا قُرَّاءَ
وَالْحَرْفُ إِنِّ مِثْلِهِ إِشْءٌ

وَالسَّرْدُ مِنْ أَقْلَامِنَا إِلقَاءُ
مِنْ شَخْصِيَّاتٍ فُصُولِهَا الْعَجْزَاءُ

إِنُّ تُنْسَبِ الْأَحْدَاثُ وَالْأَسْمَاءُ
تَبْقَى الْمَعِينِ كَأَنَّهُ الْإِمْلَاءُ

أَهْدِيئُهُ الْأَفْكَارِ أَمْ إِيتَاءُ
مِنْ مَوْقِفٍ؟ فَكَلَاهِمَا إِهْدَاءُ

إِنُّ قَارِئًا أَمْ كَاتِبًا سِيَانُ
إِنُّ الْكِتَابِ مَحْطَةُ بَيْضَاءُ

تدعى خديجة

بزغ صباح يوم جديد يكاد لا يختلف عن غيره من الأيام، بجو أشبه بذاك الذي شهدته أيام هذا الأسبوع، شروق مضيء بخيوطه الممؤهة بالبهجة، لم يتخلف عن مواعده طيلة الأسبوع، إنما هو بسمة شمس من تعودها قد تهللت، كاشفة عن ثغر السماء، وتلك الغيوم البيضاء تستهويك بشدة حتى تغرف منها قبضة، فإذا أنت في حيرة أتأكلها أم تغطس وجهك فيها... بذاك قد تبعث في النفس كل الرغبة والميل إلى سفر أكانت نهايته غروباً منقضيًا أم أياماً طوالاً، لا يهم.

كانت خيوط الشروق البريئة- يتراءى لك أن اليوم سيكون لطيفا معك كلطف شروقه الجذاب- تنطلق وتتسابق لتنتشر فتملاً المقاعد الفارغة على جنبات السكك، ريثما يعتليها المسافرون المتعثرين في مصاحبة حقائبهم، كملوك يعتلون عروشهم نحو شيء عظيم هم مقدمون عليه، ولو كان عند البعض مكلفاً فإنه سائر إليه.

إنها وكعادتها تفيض نشاطاً وحيوية، تتقدم بخفة وحركة. كان واضحاً للغير أنها امرأة عسراء، كما كانت واضحة جديتها الثابتة في تأدية واجبها بالتزام، تستحسن الأمر نحو خاطر مرتاح يسعى له كل عامل، لا يبدو أنها ستتسامح مع أصغر حبة غبار! كشرطية نظافة تمضي سعياً نحو أمن المكان.

وها هي ذي الآن منكبة على تنظيف أرضية الدرج المؤدي لمركز المحطة، منهمكة بكل تركيز تمتعت به لحظتها، حتى صاح أحدهم قبالتها بصوت خشن يتأرجح وسط السعال:

-خديجة، لقد كدت أنتهي يا بنتي... بل إني انتهيت، تستطيعين البدء في العمل...

كانت تدعى خديجة، وكانت سيدة شابة لم يتجاوز عمرها بعد التسع والعشرين سنة، قصيرة القامة، مملوءة الجسم، ذات بشرة بيضاء تميل إلى احمرار يظهر أكثر مع شمس الظهيرة حين تنال منها، واسعة العينين كعيني غزالة تحدق بك في انفراد وسط الغابة، كغيرها من النساء الملتزمات تضع حجابا يمنحها عفة ووقارا، ومظهرها الجاد يظهر أنها ذات طابع صعب عسير، لا تقبل المزاح ولا حتى فيض الكلام، رغم أن هذا ينكره كل من يعرفها، وكل من يرى ابتسامتها المشرقة على شفيتها، وبالمثل شبابها الماضي مضيا تراه ثمرة قطف أبكر من موعدها.

وكتعبير عن احترامنا الكامل وقيمة ذاك الإنسان نقبل رأسه مع بضع كلمات صغيرة قد تكون دعاء أو أي شيء رحيم الشفتين. إن مثل هذه الأشياء تملك مكانة عظيمة في مجتمعنا، توابث تجدها أينما حللت، عند الكبير والصغير؛ وعلى ذلك تربينا.

كذلك قامت تقبل رأس الرجل وهي تقول له:

-دائما ما تنجز عملك في وقت وجيز وبدقة وإتقان، لذا فأنت الشخص الذي لا نستطيع التخلي عنه، بالأحرى لا أستطيع أنا التخلي عنه، الحق يقال... (لهلا ايخطيك وصافي)!

-لا! لا! هذا لا شيء، إنه مجرد صنبور، وإنك بهذا تقومين بتدليلي وتحسيسي أن الأمر شيء عظيم، آه! إنك تلعبين بمشاعري... ربما سأذهب للمدير وأطالبه بزيادة في أجرتي... رأيت كيف دفعتني للتفكير في الأمر؟ أخذت تضحك والسعادة تطفو على ابتسامتها، ثم قالت له بينما كانت تتفقد الصنبور:

-أنت على الأقل تفهم في مثل هذه الأمور البسيطة... على سبيل المثال أنا التي درست إلى الجامعة، وتحصلت على شهادة الإجازة لأعدو

كوني متفرجة لا تقوى على إصلاح مثل هذه الأمور، ببساطة، الحياة مدرسة لمن انفتح عليها بكل مكوناتها، ومدارسنا التعليمية جزء له أهمية كما لبقية الأجزاء أهمية كذلك، ولا يمكن أن نختصر الحياة في الدراسة فقط... فهذا أنا في النهاية عاملة نظافة، أجوب زوايا هذه المحطة سعياً للتنظيف... أنا لا أنقص من قيمة هذا العمل! حقا لا أفعل ذلك، ولا حتى من دوره الهام في بيئة نظيفة تجنبنا أخطر الأمراض وتزيل اللثام عن جمال الأمكنة... على كل حال الحمد لله.

-دعيني أذكرك بشيء هام، رغم أنني لم أدرس إلا المرحلة الابتدائية، ولا أدعي أنني سأقول شيئاً عظيماً، لكن الشيء الأهم هو أنك الآن امرأة واعية تستطيعين الكتابة والقراءة والتحدث بلغة أجنبية وذلك هو أساس التعليم وليس التوظيف في وظيفة قارة مع الدولة... لقد درسك والداك طبعاً من أجل مستقبل أفضل، لكن الأهم هو أن تكوني إنسانة متعلمة تستطيع مواكبة الحياة والاندماج مع المجتمع في صورة إنسانة متعلمة حاصلة على الإجازة في القانون، وأنت تعلمين أهميته -القانون- في الحياة اليومية، فصاحبه إنسان لن يتجرأ غيره على خداعه، وهل أضيف شيئاً؟ حسناً: إن التعليم يبقى كمنزل بنيتَه طول هذه السنين، يمكنك من الاحتواء بداخله وسط شراسة هذا العالم.

كذلك قال وهو يتحسس الحمل الذي يحسه من هم في مستواها.
-أصبت يا عمي! أصبت... هذا ما يغيب عنا نحن معشر المتعلمين المفأخرين في وقت ما بشواهدهم، فما إن يتسلل اليأس بداخلنا حتى تنطفئ شعلة التعليم فنعود كغيرنا ممن لم يتعلموا...
قال وقد جهز نفسه للانصراف:

-الحمد لله على نعمتي العقل والصحة، لو نعلم أهميتهما لما تبعنا أشياء أخرى...

اكتفت بطأطأة رأسها توافق على المقال ثم انصرفت هي الأخرى لعملها بعد أن رافقته بنظراتها حتى اختفى بين الجموع.

لقد كان الأمر منذ سبع سنوات، حين توجت أخيرا بشهادة الإجازة في شعبة القانون. كم خيل لها لحظة تسلمها الشهادة أنها مقبلة على وظيفة جد قريبة، وافدة على مستقبل جميل، يمكنها الآن اجتياز مباريات التوظيف وعروض العمل، متخلصة من وضعها الأسري المزري الذي سترته إن قضت حاضرها دون تغيير، لكن حاجتها الماسية للعمل مع شبح البطالة المرهق المؤنب إنما ألزما عليها القيام بأي عمل كان، مهما قل راتبه، متناسية مستواها الدراسي؛ رأته همًا ثقيلًا أكثر مما هو منجاة وخلص.

لا هي ولا جدتها الطاعنة في السن لهما رجل يعيلهما، ومن يتحدث عن الزواج وما قد يخفف من ثقل، فهي امرأة مطلقة ذاقت المرارة والكآبة من زواج لم يختلف أذاه كثيرا عن همّ الحياة، فرأت الفراق أفضل، معزومة خوض صراع مع هذه الحياة سواء بمفردها أو مع رفيق جديد تتأكد قبل كل شيء خلوه من أي مشكل قد يكرر ما هربت منه، رغم استحالة الفكرة الأخيرة، فالإنسان بحر عميق حالك الجوف، حيث هناك النيات المبيتة تطفو فوقها الحملان الوديعة.

تتمتع خديجة وبشهادة زملائها بالجد والتفاني في عملها، قاطعة صلتها بأي تهاون أو تقصير قد يزورها ولو لحظة واحدة أثناء تأدية الواجب. كانت قد باشرت العمل في محطة القطار منذ قرابة الثلاثة أشهر، وكانت التجربة الأولى لها في هذا المجال، مدة قصيرة منذ التحاقها ومدح كبير في التزامها. إنها ومنذ قدومها لا تتأخر في توفير أبسط احتياجات العمال، بل وتنطلق دون إضاعة وقتها، مرتدية ملابس العمل البيضاء، كانت ساعية الرغبة على تجنبها الاتساخ، لا ترى أنها تحتاج وضع كمامة حين يحتدم الصراع مع الغبار، بل تحارب في سبيل عملها، طامعة في نظرة شكر وإيفاء كأقل شيء، كغيرها من العمال المتفانين في تأدية الواجب؛ وهذا حقهم.

تراها ترتدي سماعات الهاتف المهترئة - في الصباح فقط - للاستماع إلى برنامجها المفضل على الراديو وقت الصباح، فلا غريب بينها وبين عملها وبرنامجها الذي يدوم قرابة الساعة، دون احتساب التوقفات الإشهارية التي تصيها بتوتر خفيف ظاهر التأفف. كل هذا وهي في خدمة المسافرين الذين ورغم قلتهم، يتقدمون نحوها طلبا للمساعدة، أغلبهم معارف من الأهل أو الحي، بعضهم يسعد للقياءها، وبعضهم يتلذذ لرؤيتها هكذا، لعملها البسيط هذا.

كانت في وقت ليس ببعيد من صباح اليوم قد واجهت مشكلا صغيرا داخل أحد المراحيض، كان انكسارا في إحدى الحنفيات التي تضررت من قبل راكب مجهول ارتكب ما ارتكبه مكملا رحلته في صمت متملص، وما كان من خديجة، ولضرورة اتباعها عادة تنظيف المراحيض أولا، إلا أن طلبت في وقت عاجل إصلاحه. لبي هذه الحاجة زميلها العامل كحارس أمن في المحطة، كتطوع مزعوم منه. كان يتحول في بعض الأحيان إلى متعدد المواهب، يتقمص دور السباك أو الكهربائي... دعوني أحدثكم عنه هو كذلك، الحقيقة أن هذا العامل الذي يدعى «با إبراهيم» هو جارها الذي كان له الفضل من بعد الله في عملها هذا.

إن الرجل يقترب من الثانية والستين من عمره. أمضى جلّه وهو في هذه المحطة يجوب زواياها الواسعة: كمسافر يتنقل من مكان لآخر أيام شبابه، كعامل حامل مسؤولية الحياة أليف الإبداع إلى العمل، يودع كل قطار ذاهب ويستقبل القادم، يمازح المسافرين بين الحينة والأخرى، خاصة أولئك الأطفال -مختلف أعمارهم- الممتنعين بأولى رحلاتهم.

إنه رجل مكافح ما زال يصارع أطوار الحياة. له أسرة متكونة من ثلاث بنات، وصبي وحيد يبلغ من العمر سبع عشرة سنة؛ أخصه بذكر سنه لأنه يحكي عنه قائلا: «فتى لا يريد الدراسة ولا حتى تعلم حرفة، ويواصل العناد في الفراغ، يفرغ كل شبابه الذاهب في اللاشيء... أقول له دائما: هذه حال من لم يقرأ- عن حاله يتحدث- فلا تدع قدرك

شبيها بقدري، ها أنا أذهب يوميا للعمل باكرا ولا أعود إلا وقد نخرني التعب وسلبني ساعات من الراحة... لكن مع من تتحدث! لا يواصل إلا العشوائية في تسيير حياته! عمل متقطع لا يبلغ حتى ثلاثة أيام في الأسبوع».

إن رفضه الراحة في ظل سن كهذه يعود له؛ لجوانب في شخصه، كونه من الراضين للجلوس في المنزل أو المقاهي، متذوقين سن الشيخوخة. هذا ما يرفضه الكثيرون، وأتى على حساب صحتهم، صحة وإن طال بها الزمن سترضخ تحت لواء المرض أو عجز الشيخوخة.

كان كل من يرى با إبراهيم يخيل إليه أنه أوروبي العرق، لشدة زُرقة عينيه، وشعره الذهبي الذي غزاه الشيب كما غزى شاربه الطويل، مع العلم أنه وكأي إنسان قد أتاه زمنٌ وجد نفسه مفتونا بمظهره، خائضا أحلامه بأبسط ما ملك. وإن جاءك وقت جالسته فيه، لا يدعك تفارقه حتى يحكي لك إحدى مغامراته في السبعينات أو الثمانينات، بأسلوب مفصل، تتوسطه تواريخ الأحداث، حقا! ليضيف شيئا من الصدق والجدية. لطالما كانت خديجة تعني له الإبنة الرابعة، لا يفارقها وقت الشدائد، إذ هو من كان بجانبها زمن طلاقها المؤسف. كان يقوم بدور الأب الغائب، أب توفاه المرض رفقة زوجته التي لم تلبث طويلا حتى رحلت إلى دار المعاد هي الأخرى، مما خلف لدى خديجة شعورا بالوحدة الخائفة؛ لما كانا يشكلا من سند لها. فهو لم يقتصد يوما أي جهد في مساعدتها، وهي بدورها رأت فيه الأب الثاني، الأخ الوحيد، في ظل عزلة جافة باتت تعرفها منذ طلاقها.

أخذت تجول وتنظف ما بان لها يستدعي التنظيف، متزنة الخطى، في مرافقتها مكنستها البيضاء، وكيس قمامة، إلى أن ظهر لها با إبراهيم وسط ضجة المكان واختلاط الأصوات وقد انتهى من حمل علب كانت بها مواد تنظيف. راحت تكلمه وهي متأكدة من أنها اقتربت بالقدر الكافي الذي يمكنه من سماعها:

-كعادتك يا إبراهيم، نشاط وحيوية طيلة اليوم، متى ستمدني بالوصفة السحرية؟ فرما ينجح الأمر معي... كما يمكنك تأجيرني إياها، سأدفع ثمنها لا يقاوم... فكر في الأمر.

أتبعت الكلام ضحكا متواصلا. رد عليها هو الآخر مازحا:
-وصفة؟ توقفي وإلا سمعنا أحدهم فاعتقد أنني أقدم لك وصفة كعكة بالشوكولاتة مع القليل من المكسرات، فيجزم أنني لا أفارق المطبخ. أتريدين أن تجعلي من عمك أضحوكة؟ هذا عيب...

زادها هذا جرعة ضحك إضافية، كلاهما يضحك منتشيا باللحظة، إنها تلك الفسحة التي يستغلها العامل أقصى استغلال، ويحسن التصرف بها، لا يضيع منها دقيقة واحدة، يصرف جلها في تنفيس خاطر، وسبيلهم إلى ذلك مزاح وضحك بلا فواصل، حتى لكأنك تحسبه جنون. يحس بقيمتها كما يحس العطشان بشربة ماء بين كفيه، ولا تستغرب إن قام ينتزع تلك الفسحة إذا شعر أنه بحاجة لذلك.

تابع يقول هذه المرة بلهجة جادة:

-أين هي الصحة يا ابنتي؟ باك إبراهيم، بدأت الصحة تخونه. نسأل الله أن يمدنا قوة تجعلنا أهلا لمن حولنا لا عبئا لهم، فالعجزة وإن اشتد بهم ضعف الكبر يتمنون شيئا واحدا، ألا يصل ذلك الضعف إلى عبء دائم طيلة اليوم... أن تتحمل أعباءك نصف يوم ويحمل عنك الآخرون النصف الثاني يبقى أمرا مقبولا... فاللهم حسن الخاتمة يا رب... اللهم حسن الخاتمة...

كان يردد هذا ويزيل الغبار عن كلتا يديه. لقد كانت يداه متجدعتين متشققتين تبرزان ما مر منه طيلة عمره، وأظافره المحطمة، ثم أثقل النظرات.

ردت بصوت حنون تقبل رأسه:

-أطال الله في عمرك يا يا إبراهيم، وأدامك فوق رؤوسنا.

-أمين يا ابنتي... (الله يرضي عليك).

-أحتاج شيئاً مني أنجزه لك على السريع قبل أن أباشر عملي.
-ها...! (يضحك.)

ابتسمت ابتسامة عريضة مضيئة تقول:

-العادة هي العادة، سيجارتان مع كأس قهوة.

وضعت ما بيدها من مكنسة وكيس، وها قد استعدت للذهاب

وهي توجه له هذه الكلمات:

-رغم أنني أحذرك لتركها... لكن ماذا عساي أقول... (الله اهديك

وخلص)!

انصرفت على نحو خاطف التنقل، تحضر له من المقهى الواقع

في المحطة قهوته المفضلة «نورمال»، هي المحببة عند طبقة كبيرة من

المدخنين، مع سيجارتين تعيدان له نشاطه-حسب ادعائه. ظل يحدق

بها حتى اختفت بين المسافرين، يستشعر لطف وتهذيب هذه البنت

تجاهه وما تفعله من خدمات لأجله.

قال يمدحها مدح الدين والدنيا:

-ياه، انظر لهذه البنت! ليست من صلبي ولا توفر جهدا في خدمتي،

إني لأراها فضلى بناتي... (الله احفظك أبنتي دنيا وآخره)!

وأخذ يضحك ضحكة خفيفة فارعة الأصوات، وهو يوشك على

الالتفات للخلف ناداه ابنه يطرق باب الاستئذان بكلمته المعتادة

«الواليد»، كان غير متفاجئ كأنما يعلم سلفا مجيئه، قد تكون عاداته

هي السبب.

قال الإبن وهو يفرك شعره كأن به خجل من حركاته:

-أنا ذاهب لحضور المباراة... اليوم هو موعد الدربي... أحتاج شيئاً.

-كان من الممكن أن تكون الآن عائدا من العمل وبيدك بعض

الدراهم... دون كلل أو ملل تواصل الهراء. ألا تمل من حالك هذه! أنا

مللت... حقا مللت... إلى متى سأعيش لدلالك؟ إني بلغت سنواتي الأخيرة،

يا رجل انضج! فالحيياة لا تمنح الأتاوى.

قال با إبراهيم ذلك وهو يسحب ما معه من مال، ويمده بعضا منه، ويعيد المتبقي، وقد كان أقل من المعطى، غير أنه وجد ابنه يتابع بعين شاردة بعض الشباب في مثل سنه، لهم من آخر صيحات الموضة: اللباس والهواتف وكل ما يبرز الفوارق الاجتماعية، وكأني إنسان تختلجه مشاعر التمني وتحببه لقول «يا ليت...» فإنه بدا هائما إلى ما عند غيره، فقام يناديه أن يمسك المال، وقد عاتبه للحظة على الشرود لكنه صمت بعدها، لقد كان يعذره وفوق هذا كله يوافقه التمني.

مسك الإبن المال ووجهه يرسم ابتسامة عريضة، هي ابتسامة منتصر على عطف أب مهما تفوه به من كلام وقد زادت حدة المساواة إلا أنه دائما ما يخالفه، فتراه يعدل عنه في أول فرصة، وإن أي أب أو أم دائما ما تجد لديهما نقصا في الرضا تجاه ما يمنحانه لأبنائهم، يودان لو قدما لهم أكثر مهما بلغت العطايا والهدايا. والعجيب أنه في تعاملهما مع الغير يختفي كل هذا، قد يقسوان وقد يحنان ولكن ليس بذات المثل، كأنما يعيشان بقلبين وفي كل قلب مقدار متفاوت من المشاعر.

عاد يخاطبه بلهجة أقل حدة، وكأنها فرصته الأخيرة لينتشل هذا الصبي من الماضي فيما يُغرقه في خموله:

-اسمع، قد أكون قاسيا بعض المرات، لكن جل ما أسعى له مصلحتك، إني أريدك أن تكون بجانبني، أن تساعدني في مصارعة هذه الحياة القاسية لا أن تصطف بجانبها فتكونا معا ضدي... صحيح أتي درستك وتوسمت أشياء ككل الآباء، لكنني لم أدرسك لتصبح موظفا أو وزيرا، بل إنسانا واعيا جاهزا لتحمل عبء الحياة، أن يكون لي وزن عند الناس بمجرد أنك شخص متعلم وصل المرحلة الجامعية... (الله ارضي أولدي لما دير عقلك)!

مهما تكثر الفرص التي يمنحها الأب، ومهما اعتقد أنها فرصته الأخيرة إلا أنه لا يقتل ذاك الأمل بداخله، من أين له بهذا؟ ربما هو ذاك الإحساس الذي يتشكل مع ولادة الأبناء، وربما قبل هذا، منذ علم

أنه سيرزق بمولود، والجنس سيان... فيسمو لمقام صبر لا يناله غير الآباء، فاللهم اجعلنا أهلاً لآمالهم نأويها طيباً فتضوى بها أيامنا. أضيف هنا أن الأحاسيس تأتي مع الحوادث، لا نعلم أين ومتى؟ وهل حقاً ستأتي؟ لكن الإحساس الذي جننا على ذكره يؤكد أنك ستحصل عيله عند أول خبر يزف إلى مسامعك.

رد الإبن يقول:

-كن مطمئناً يا أبي، غدا سأجرب حظي مع بعض المصانع والمقاهي، وربما أمر لبعض المحلات التجارية: ملابس، وجبات سريعة... لا تخف فابنك كالسبع، لا شيء يثنيه.

-وجبات سريعة؟ أتقول وجبات سريعة وأنت لا تحضر حتى كأس ماء حين نحتاجك! اغرب عن وجهي فأنا أريد العمل.

كان رد الإبن سريعاً حين ارتقى على رأسه، مردداً ما يقوله كل مرة حين يحس إلى أي مدى هو مدين لأبيه «الله يطول في عمرك الواليد» مقبلاً بياض الشعر الشاهد على عمر بلغ حدوده، ولو أن العمر ليس أرقاماً بقدر ما هو استنزاف لطاقة هذا الرقم.

رحل الإبن منتصراً على مرحمة الأب، وبقي الأخير منتصراً كذلك حين لبي طلب ابنه، ومنهزماً حين يفارقه والحسرة تتأكله لمجرد وضع ثابت أبي أن يتغير. عاد با إبراهيم لأجواء العمل، يلاحق الكَلَّ بنظراته، تواصلت بمرور أحد الأطفال من أمام ناظره، كان يتجه متخبط المشية، يحاول الدخول للمرحاض تحت تردد، تراقبه أمه وتدعوه للإسراع، فعزم على المشاركة في المشهد مشجعا الطفل على المضي نحو المرحاض، مطمئناً الأم ألا تقلق.

عادت خديجة وبيدها المطلوب، تحرك عينيها في كل الاتجاهات، ذلك أنه ما عاد له أثر، حتى لصوت جد خافت يصدر منه، ناعته إياه بكثير الحراك، متممة بإحباط:

-أين ذهبت يا با إبراهيم ثانية؟ لا تدع مكاناً إلا وتقصده... ربما

ذهب مع أحد المسافرين وقد نسي نفسه في الكلام، أوريما استدعته الإدارة... أيمكن أنهم رمقوا وضعنا واستدعوه للاستفسار؟ لا، محال... ماذا فعلنا ليحدث هذا الأمر؟ كانت مجرد كلمات مع ضحكات خفيفة، حسنا لم تكن كلها كذلك، فقد ضحكنا بقوة للحظة قصيرة... آه! كفاني من الأفكار المتشائمة، ولأواصل البحث.

واصلت نظراتها التفقدية وكلامها الخافت، حتى ظهر لها ماسكا بيد هزيلة بارزة العروق طفلا، مسلما إياه لأمه، هذا قد شفع له عندها، مبددا في زمن قصير- كان بمسافة تموضعها وهي تبحث إلى موضع التقائهما- كل ما راج داخلها من إحباط وقلق.

خاطبته وهي تناوله القهوة:

-تفضل قهوتك حتى تستعيد نشاطك، رغم أنك تكون نشيطا على مدار أربع وعشرين ساعة)تمازحه(.

-أجل! كما أني لا أنام من فرط القوة التي تفيض من جسدي.)
يجمع قبضته بقوة(.

ها هي تضحك مرة أخرى واضعة يدها المبسوطة على فمها، كأنها تنذر أن ضحكتها ستطول.

تابع با إبراهيم يقول:

-جميل أن يجاملك أحدهم، حتى لو كانت مجاملته هذه أقرب لباب المزحة. أنت على الأقل تريحين قلبي المتعب، أما ذاك... (ذاك المسخوط).

عاد ليضيف على السريع:

-أو لم تعلمي أنه كان هنا منذ قليل! أبدى حاجة شديدة إلى المال، هناك مباراة اليوم... كصبي صغير لا زال يلاحق المباريات والملاعب، أنا متأكد أن تلك الملاعب ستأتي بأخرته...

ردت خديجة متفاجئة:

-أكان هنا؟

- جاء ليزيد ضغطي لا غير، وأنا منحتة ما أراد؛ يظل ابني.

قالت خديجة تواسيه:

- لا تشغل بالك، هكذا هم شباب زماننا. إن شاء الله سيكبر ويصير

سلوكه عقلانيا.

أردفت تقول:

-الحقيقة أن العائلة والآباء نعمة تنتشل مجتمعنا من مصير حقا كان سيوجع معضمننا، هذا التضامن الذي يكفل الأفراد، ويجعلهم في مأمن من أضرار الحياة، كأن تجد الأب يواصل تحمل مصاريف ابنه وهو يقترب من الأربعين من عمره لشيء عظيم لن تجده في المجتمعات الغربية، فهذا الذي يدفع مجتمعنا من صقيع الحياة.

-نعم، وإني أعرف رجلا يبلغ الثمانين من عمره يتحمل مصاريف ابنه المتزوج وحفيده المتزوج هو الآخر في منزله الكبير القابع في الحي المجاور لحينا، يردد المسكين قائلا: وأين فراقهم عني ما دمت أنا كبيرهم؟ كما أنهم يملؤون المنزل أصواتا، وذلك لا غنى عنه لمن هم في سني.

وتابع يقول:

-وأنا أتوسم فيهم خيرا في الأيام القادمة مهما أبديت من تدمرات وصلابة في متطلباتي... حسنا لأدعك تواصلين عملك، فإن استمرينا في الحديث فإننا سنطرده... (غدا نصبح أنا وياك كقلبو على خدمه جديدة).
قام من مكانه راحلا تجاه موضع عمله الواقع في السكة رقم اثنين. تاركا الجو في حالة قهقهة، إنها خديجة، لا تكاد تتوقف عن الضحك وهي برفقتها، وكلما نال منها التعب وضاقت نفسها الرحبة. توجهت للبحث عنه، تعلم علم اليقين أنه سيضحكها. إنه إنسان عفوي بسيط في كلامه وكل ما يصدر عنه. وإن الإنسان حتى إذا سعى إلى السؤال في مجمع، تراه يسأل بسيطا كي يلقى إجابة بسيطة، يطمئن داخله قبلا، يتأكد أنها لن تكون إجابة متعالية الرد. وها هو الآن يجهز داخله من استعداد نفسي وكلام مختار توجهه صفارة كم أتعبت رثيته المنهكتين المجهدتين بالتدخين المتواصل.

داخل المحطة

تشهد محطة الدار البيضاء المسافرين يوميا توافد مختلف الأجناس القادمين من شتى الأمصار، يجوبون كل أروقتها في لحظة تختلف من شخص لآخر، فهناك لحظة استكشاف لأولئك الزائرين لها أول مرة، تبهرهم بتصميم تقليدي يعلوه برج أبيض مع قبة خضراء تشبه صوامع المساجد، تتوسطه ساعة تظهر لك من كل الزوايا، وجناح حديث العهد يتميز بتصميمه العصري، يقودك إليه ممر كبير، وعلى حائطه ترى اسم المحطة بارزا وأنت تتدرج فيه... الشيء الذي أضفى رونقا من الانسجام الجذاب.

وهناك لحظة استراحة عادية مطمئنة لمن صار يتردد إليها، كما هناك حالة ترقب للذين يعدون الدقائق ولا يزيلون عيونهم عن موعد رحلتهم، لا لشيء إلا لموعدها القريب جدا، أما ورغبتهم في البقاء أكثر فذاك لا شك فيه، وقد تجد حتى ذاك الذي لا رحلة له، ولا حقيبة يجرها خلفه، لكنه يمضي بين الناس ووضائهم، يستنشق كلام المسافرين، وبيتغي سماع عزف القطارات القادمة والذهابة، تترجم سريعا كسفنوية موسيقية وليدة اللحظة، ولا شيء غير تلك اللحظة.

أنهت خديجة وعلى وجه السرعة عملها في جهة المراحيض. وها هي الآن تنظف الأرضية الموازية للمراحيض، متدرجة زاحفة نحو ما وراء الدرج الواقع على يمينها حيث كراسي الانتظار والشاشات المدونة عليها أوقات الرحلات والمحلات التجارية، وتجد الناس بكل أعمارها وأجناسها، جاعلين المكان في صخب مستمر دائم، هم رعاة الجلبة، البعض قعود

والبعض الآخر يقف مجموعات كما يقف فرادى، وأيضا منهم من يتبضع والآخر يحتسي قهوته على وضع تآهبي بسرعة، ليست كتلك التي نعرفها في مقاهي الحي، والأرض تعاني الخطى، وفي ذلك معاناة لمن هم على نظافتها ساهرون.

لقد كانت تتوقف لبرهة قصيرة حتى تمنح نفسها استراحة سريعة، نفسا جديدا، خاطفة بعض النظرات على محيطها؛ أناس تذهب وتجيء من حولها. يلقي بعضهم عليها نظرات تفحص، منهم من يشفق ويتحسر على تعب يطالها، والآخر في لامبالاة من هكذا مشاهد، وي لا نظلم بعضهم: السرعة في مواكبة الحياة ومكوناتها، وما أعطاه هذا للذين حوّلهم نحو وجهة الأمان... كل هذا جعلهم في وضع يظهرهم وكأنهم ماضون نحو اتجاه فارغ.

إن الصباح والصخب اللذان تضج بهما المحطة والقادمين إليها من مختلف الوجهات: الأوروبي والأفريقي والأمريكي... كل هذا لا يشغل بالها، أو يجعلها تخجل من التنظيف أمام أعين الغير، بل ولم يشعرها أنها في ظلم من حياة لم تنصفها، لم تمنحها الرفاهية، وراحة تعدها أن كل ما تقاسيه الآن لن يقربها من السعادة، بل إن مشاهدتها لبعضهم مرتدين آخر صيحات الموضة، مع هواتف عملاقة ذي سماعات متطورة (رغم أن بعضهم يفضل الاستماع والتسميع: هم أناس يستمتعون، قد وصلوا أقصى درجات الاستمتاع لحظتها، يحبون مشاركة حالهم تلك) إضافة لتحديث الكثير منهم بلغات أجنبية، يعيد لها الرغبة في إنشاء غد أفضل على أنقاض أمس بائس تعيس لن يفيدها تذكّره، ولو لأجل استدراك أخطائها، مع يوم يخبرها أن الكل ما زال بخير، وأن قطار الغد المشرق دائما متاح على كل السكك. فتحس أن شيئا بداخلها يتحرر، مستغلا ما وصلت إليه من أمل واندفاع نحو الأفضل، يثير أحلامها لتستعيد أولوياتها.

إن رؤية أحدهم يعيش حياة أفضل لا يجعل المرء دائما يلعن حياته، ويبين كرها لساعاته القادمة البريئة مما يحدث، ويشتم الوضعية التي

سببت هكذا حالا، وإنما قد يدفعه شيء من هذا للاستيقاظ؛ استيقاظ نحو أحلام قد هجرها عند أول خيبة أمل. حتى ذاك الذي ليس له الأمل، إنه يرسم في الهواء في خطوة سريعة دون أن يراه أحدهم حلما واحدا على الأقل، خديجة تشترك مع هذا الصنف الأخير، قد جاءت للمحطة وهي في حالة حطام... والآن، إلى هذه اللحظة، قد رسمت لنفسها حلما واحدا، محتفظة به لنفسها، شاكرة كل مسافر جاء في ناظريها على بارقة الأمل فيما يخص القادم.

الأمر طبعا ليس بالبساطة التي يتصورها البعض. فهي ما تنفك تمضي بعيدة عن ضجيجهم وخطواتهم المتسارعة، وأنفاسهم المتقطعة، حاضنين بطاقات السفر أكثر لزوما من المال نفسه، حتى تجد حالها البائس وشجاعة تجرأت بها على اللحظة رافقتها طيلة ساعات العمل قد زالت! بقيت في المحطة قرب المكنسة، تدعو عودة ساملة لخديجة، وربما التصقت بمفكرة أحدهم كان يستنجد في صمت زائل.

إن مكان السرقة الذي تعرضت فيه لسرقة حياتها الشبابية البريئة، والوجوه المألوفة، لم يلبثوا يذكرونها بالماضي... أه! كم مثل هذه الأشياء من تأثير كبير في تقييد روحها المتهالكة والمثقلة برفوف من الهموم من الركض خلف بصيص أمل هي تعلم حق المعرفة أنه قابل للاضمحلال. إن الفقراء البؤساء لا طاقة مادية لهم في التجرؤ على التفكير في سبيل رحيل جريء من مكان الوجع. فالوضع المادي المزري يلزم عليهم البقاء والمحاربة في سبيل البقاء لا الانتصار. قد يبدو للبعض أمرا كهذا بسيطا كبساطة اعتقادهم هذا. إن رحيلك وفي بالك أنك زدت معركة أخرى لمعاركك لا يزيد الحال إلا تعقيدا وغموضا نحو المستقبل.

كان من عاداتها، حين تنتهي من تنظيف ما هو مسطر على برنامج التنظيف، أن تسير سير المتحاشي بتمهل، بحثا عن كل ما قد يفسد نظافة تعبت عليها هي وزميلاتها، بل ومنحنها كل زفرة نفس عند البحث، وعند الانحناء بالتقاطها، وعند تلويث أيديهن العذبة في تصرف خاطف بجرة

الأصابع، سعياً لإرضاء خاطرهن الذي تعلق بشيء من النظافة، ومنحاً لذاك المسافر المستعجل على الأغلب.

وفي أعقاب ذلك، كانت قد صادفت إحدى المشرفات على النظام تتقدم نحوها، وما تستطيع سماعه رغم الجلبة هو قوة كعبها العالي الذي يدوي على الأرض بدقات قوية لا يمكن طمسها، فالمكان شاسع يسوده الصدى. تجاوزتها في بادئ الأمر كأن بها شيئاً مستعجل هامت فيه، لكنها توقفت وعادت تستدرك وهي تناديها باسمها:
-هيه... خديجة، كنت قد نسيت.

كانت سيدة حادة النظرة، قوية النبرة، في لباسها أناقاة مبالغة رغم سنها الذي قارب الستين، بها حداثة وعصرنة، فلا تقدر حتى في الخيال أن تستحضر صورتها وهي في عهد السبعينات، تترجل مرتدية لباسها، كأنها ما عرفت إلا هذا العصر الذي نحن فيه. وأقوى شيء قد يشدك في مظهرها لفة الحجاب التي كانت تبرز بشكل واضح حلقات الأذن اللماعة ذهباً. توقفت خديجة في الحال، ثم استدارت على نحو خاطف تمنحها كل حواسها، وقد سرت بها رعشة توجس وحذر، وكم كانت في معظم حالاتها إنسانة خوافة، تخشى أن يكون بها عيب قد صدر ولم تنتبه له. فطنت المشرفة إلى حالتها، فاستدركت تقول مبينة كل خفاء:

-كنت قد لمحت بعض الأوساخ في السكة رقم ثلاثة، الأفضل أن تنظف في الحال؛ ذلك كل شيء.

وإذا نظرت إلى خديجة فهي لم تجبها كلاماً، وإنما اكتفت بأن تحرك رأسها، وتعتقد حاجبيها مع نظرة جادة، كأنها تداري ما سرى بداخلها منذ لحظة، وتبدي عزمها في تلبية سريعة للأمر الموكول لها. أما المشرفة فقررت أن تواصل الحديث معها، فلا شيء يغني ثقة المرء أكثر من حديث مع الذي سبب فقدها.

قالت لها باسمه الوجه وقد لئنت نبرتها:

-هل اعتدت على أجواء العمل والمحطة؟ إن الأمر ليكاد يكون

صعبا في البداية، لكن ما إن تبدأ الأيام في التقدم يجد الإنسان نفسه قد اعتاد. المهم أي دائما هنا إذا ما احتجت لشيء، فإني أحبك مثل ابنتي... وعلى سيرتها فأنا الآن في عجلة من أمري، لقد اتصلت بي والغيض يكسو صوتها، لو تسمعين ما قد أغاضها لضحك أشد الضحك، لقد حصلت أمس على شهادة السياقة، واليوم عزمت أن تسوق سيارة والدها إلى الجامعة، فصادفت بعض الصبية الصغار عند ممر الراجلين، وكما تعلمين وجهوا لها بعض الكلمات، فقامت تهبط وتطارد أحدهم (تضحك خديجة ضحكا خفيفا متقطعا) فتركت باب السيارة مفتوحا، والنتيجة: سرقة هاتفها وشجار مع بعض السائقين السائمين من الانتظار خلف الضوء الأحمر، وسوء تفاهم مع شرطي المرور انتهى بتحرير مخالفة... هذا الجيل يندفع بتهور كأنما لا يهاب شيئا، فإذا بك تجده في نهاية الأمر في الزاوية أقصى ما يستطيع فعله هو البكاء... على أي سأدعك تكملين عملك.

وأمسكت ذراع خديجة، وهي تمر يدها كأن شحنة دفاء وحينية قادمة لتعصف بوحدة خديجة، وأكملت تقول:

-نلتقي غدا لأني لن أكون متفرغة اليوم، إذا احتجت لشيء اتصلي

بي. هل نحن متفقتان؟

-متفقتان.

بين الخجل وشدة الاحترام، جف منبع الكلام، واكتفت بهذه الكلمة الوحيدة. إن حالها هذا لم يقل عن أول يوم لهما، بل ولو أمضيا سنة كاملة ما تجرأت خديجة على أن تخرج عن خجلها أمام المشرفة التي لسبب ما أحببتها عن غيرها. وما حب الناس لك إلا حب من الله.

مضت خديجة إلى الموكول لها نحو السكة رقم ثلاثة، ملبية طلب المشرفة، تلبية تنم عن عزم بالغ التصميم في إنجازها، لما تكنه لها من احترام، ناهيك عن طبعها الغلاب في تأدية الواجب مهما وصلت له من تعب، فهي لا ترضى أن ينقص أحدهم من عملها. وهنا أشير لتلك الفئة

غير المبالية التي ترمي الأوساخ دون تهاون كأنها تتنافس، وهل في الأذى تنافس؟ الظاهر أن هذا ما صار عليه الحال. ألا كفوا أذاكم وارحموا فيه ضلعا تقلص من التعب، إذ يكفيه ما هو فيه... رجاء أنهما اللامبالاة القابعة في أدمغتنا.

قد كانت تسير إلى وجهتها وهي تتفحص وتستقرئ القادمين قبالتها: أزواج يسكون أيدي بعضهم، أبناء أحدهم غير راض بالمرّة عن ملابس قد اقتنوها له، فيصرخ متوددا «أرجوك يا أمي لنعُد...!»، أصدقاء يسخرون من صاحبهم وقد احمر خجلا بعد أن تجاوزته إحدى البنات وهو في سعي لمكاملتها. ثم يأتي وقت تذكر نفسها أن لا وقت للتناقل، تجدد نفسها وهي تنتظر دورها على الدرج الكهربائي، لا تحرك إلا يديها المغطاة بقفازات بيضاء، مخبرة الكل بحق أسبقيتهم. فلا نزول لها على الدرج حتى تكون مؤخرته، تجنباً للاحتكاك؛ احتراماً لرغبة الكثيرين في طلب متخف كهذا وراء عباءة السكوت، محتفظين به لأنفسهم، موجّهين النظرات كندخل احترازي.

هبطت إلى الموضع الذي وجهت له. كان لا يعج بالمسافرين، فالقطار المنطلق منذ قليل قد حمل جلهم، والصمت كأنه ريح هبت نسيما عليلا، أقول هنا: تعتريك راحة غريبة أنانية، كأنك كنت تقسم معهم الراحة والمساحة، وحتى الكلام مع الغير، قد سلبوه منك، وبرحيلهم قد يكون لك نصيب من هذا.

أخذت تتفحص حجم المكان المتسخ حتى تشرع شروعا مريحا مطمئنا، معطيا إياها تخليا مبكرا عن المكان بشكله النظيف. فأخذت تلتقط الأوساخ المرمية من المواضع كلها، تكنس بلطف ما بدا في حالة تستوجب التنظيف. وقد كانت أوساخا غير جالبة للغبار، غير أنها حكيمة التصرف متجندة الحيطّة حين بللت مكان التنظيف، قاطعة الطريق على أي غبار ثائر، فضلا عن ذلك تكاد لا تتحسس منها أي سأم أو تأفف.

رجل الأعمال

ظلت عيناها تجوب زوايا الرؤية بحثا عن كل الأزمات المنفلتة، منهمكة في العمل منكبة عليه، إلى أن سمعت صوتا شفوفا عطوفا ينادي! كان الصوت لأحد الجالسين على مقاعد الانتظار، يدعو أحدهم للجلوس، تبين لها أن هذا الأحد عجوز تبلغ من العجز البادي على محياتها ما يبلغه الرضيع من الضعف. يرافقها شاب نحيل طويل القامة، كان قد نادها «يا»، الواضح أنها جدته، تستمر في تكرار «دعك بجانبى»، يا لقساوة المشهد، رؤية العجوز الذي كانت تتحدى الأيام وحدها في وقت ما، قد غلبت من فرط العجز الصحي، وعادت تنادي الآخر ألا يتعد عنها.

-مروان، تعال واجلس بجانبى...

قالت العجوز هذا، متناسية أن المكان يتسع لشخص واحد من فرط ما خافت أشد الخوف البقاء وحيدة. لقد كان ظاهرا كم احتل فكرها هاجس الخشية من البقاء وحيدة.

رد حفيدها متأففا، وكان به تضايق وانزعاج شديدان جليان على وجهه النحيف من شدة تكرار الجدة للأمر:

-أين سأذهب؟ فقط استرخ، ثم إن القطار يكاد يصل... (الله إهديك أيها)!

وسط هذا، قام أحد الجالسين من مكانه المجاور يدعو الشاب للجلوس قرب جدته! حتى أنه تطفّل فطالبه بتلبية رغبات جدته العجوز مهما بلغت حرجا.

عبرت العجوز عن امتنانها وشكرها لهذا الجميل وأخذت تردد:
-أسأل الله أن يجازيك على هذا... (الله ارضي عليك أولدي).

عبر هو كذلك عن بالغ احترامه، بحيث أشرق وجهه في سمائها
المعتمة تخوفاً، أما الحفيد فقد ابتلع ابتسامته بشربة علو وعجرفة،
يرجع ذلك إلى طباع من هم في سنه، يرفضون النصح حتى من أقرب
الأشخاص، بل ويذوقون في ذلك طعم الإهانة، إذ يخيل لهم أنهم في غنى
عن أي شيء يقلص حضورهم ويقزم صورتهم.

التفتت خديجة تحديق في صاحب هذا العمل الحسن، وتعود
لتسرق بعض النظرات إليه، فتشبع فضولها الداعي. كان رجلاً هادئاً
المظهر، بشوش الوجه، حوله طاقة دفاء غريبة، ذا قامته متوسطة، مرتب
المظهر من شعر طويل مصفف إلى ما يرتديه من معطف بني اللون،
مع وشاح أسود يلف عنقه. ظهر لها كأستاذ جامعي في البداية، لكنها
عادت تسحب رأيها، كانت قد لاحظت بين يديه حقيقة من جلد بني
اللون ينبئك مباشرة عن ثمنه الباهض، حتى لأولئك القليلي الخبرة في هذا
الميدان، فراحت تنعته برجل أعمال، مديرة شركة... ثم تعود لتتخبط في
تخمين وظيفته المجهولة.

بعد الذي قام به من تصرف حسن ينم على احترام وتأخ يصلح
بهما صلة التضامن، وقف به كان ليس ببعيد عن المقعد، وقف وقفة
مستقيمة متأملة إلى الأمام، يتفحص أحياناً ما حوله، في داخله ترقب قد
طال للقطار، حاله كحال الركاب جميعهم، أخذ هاتفه من جيبه ملبياً
رغبته الفجائية في إلقاء نظرة خاطفة حثيثة على الساعة، فيعود سريعاً
ويدخله بلباقة زادته مكانة. تقترب منه خديجة مؤدية عملها لا غير،
لا تتربص بما لا يعينها، فهذا ليس إلا جزءاً من يومياتها يحدث بشكل
معتاد، لكننا أحياناً نعيش موقفاً مشابهاً، بل ومطابقاً لأشياء كثيرة مرت،
بنفس جديد، بروح نظيفة متجردة من كل ماضيها.

رن هاتف الرجل -رجل الأعمال في نظر خديجة- فأخذه بكل أريحية

من جيبه. بعث هذا إلى خديجة أن حدسها وتقديرها القائم على كونه رجل أعمال قد تراجعت فرصه، كون رجال الأعمال يركضون نحو أي اتصال يأتهم، يتلهفون لسماع أخبار عن صفقاتهم وكذا نتائجها، لكنها عادت تتقرب من رأيها الأول، إذ قالت في داخلها:

-ربما هو رجل أعمال، كان مرتاحا للرد على اتصاله... حقا هو مدير شركة من أولئك المدراء الذين لا يزورون شركتهم إلا قليلا، لا يأتي إلى مكتبه حتى تصبح الساعة العاشرة، يستقبله موظفوه بتحية الصباح، وأولهم مساعدته التي تمده ببرنامجه اليومي... وإن لم يأت لا يوجد من يحاسبه... حياة مدللة! يدللون أنفسهم بأنفسهم.

لكنها عادت سريعا لتطرح سؤالا وقع ببالها في خضم هذا الحديث الداخلي، فتجيب عنه سريعا، كأنها تتعمد الغوص في هذا الحوار:

-لكن، أليس رجال الأعمال، أصحاب الشركات، تكون لهم مجموعة مختارة من السيارات تقبع في طمأنينة، وتدلل بالتنظيف والعناية أمام الفيلا؟ (وبييه ألاله و المرأه والأولاد حتى هما، كل واحد عندو طنوبيلتو...!) فلماذا سيحتاج وسلية نقل وكل هذا الانتظار الممل؟ أتكون سيارته معطلة؟ وربما له عمل بعيد عن شركته، أو ربما هو من البسطاء، محبي العيش في جو اجتماعي شعبي، أجل! ربما هو كذلك، فلشهامة موقفه مع الجدة العجوز قد يكون المدير البسيط.

رد الرجل على الاتصال بلهجة حنونة ولسان رطب، حتى التفت له حفيد الجدة يتفرس ونظرات التذمر لم تفارقه بعد، ما عاد للمسكين خاطر فيما هو فيه كأنه مرغم على مرافقة جدته:

-أهلا أمي، كيف حالك... حسنا لقد أجريت معها اتصالا منذ قليل... أعلم يا أمي... لا تقلقي، سأعاملها معاملة فرد من العائلة... لقد حكيت لي مشكلها... لا أخفي عنك أن أمرها ليس بالسهل اليسير، فقضية كهذه تحتاج إلى التدقيق أكثر في أبسط الأمور... لا! لا! أعلم، اطمئني... مع السلامة يا أمي...

أنهى اتصاله بكل أدب يتمتع به، لم يرفع صوته، ولم يعترض على أمر ما، كل ما بدر منه في الاتصال يدل على تربية ولباقة جعلها خديجة تحاور نفسها مجدداً:

-لباقته وأدبه في الاتصال يرفعان من تخميني. أشياء كهذه لا تجدها إلا عند الطبقة الراقية. فيا رب، احفظ أمه على تربيتها المثالية هذه له... آه! عندما يحين الوقت الذي سأنجب فيه، سأعنتي بكل الجوانب الأخلاقية لابني، وأدرّسه أحسن تدريس، كي يصير رجل أعمال، أو موظفاً براتب محترم، وربما تشكره عاملة نظافة كما شكرتُ أنا الآن أم هذا الرجل. قالت جملتها الأخيرة متناسية أنها ومنذ قليل كانت ترفض رفضاً قاطعاً زواجا قد يفتح الجروح الأليمة، بل غاب اهتمامها للأمر. يحدث هذا معها دائماً. تتشجع لأمر وتنسى ما يقع بداخلها، «ومن هذا الداخل أولاً الذي لا يريحني؟ فليذهب لسبيل حاله ويتركني وشأني.» ربما هذا ما تردده. تجعله يفقد الذاكرة ولو لثوان، لكن سرعان ما يعود الأمر برمته، فارضاً واقعا مؤلماً متعباً كأنه التعب نفسه.

-سيدتي، المعذرة... شباب اليوم لا يعيرون أي اهتمام للآخر.

كان هذا رجل الأعمال! التقط غلاف بسكويت لشاب أنهى ما بداخله، رامياً في لحظة غفلة منه الغلاف في الأرض. ربما اعتقد أن السيدة التي تنظف، ومن قربها له، ستلتقط الغلاف على وجه السرعة، وربما لم يفكر قط بهذا، فقد أتى على فعل ما فعل ولم يتمعن في فعله، لم يدرك إدراك عاقل أنه تصرف قبيح، أول من سيلام عليه تربيته، موازاة مع لوم سيغال أبويه أكثر.

اضطربت خديجة، وزادت عيناها اتساعاً من الموقف. كانت قد تجمدت في مكانها تحديقاً بتصرفه لا به. تسابق الزمن لتستوعب وتستجمع استيعابها. حتى هو لم يعد ليكلّمها، إذ استدار كلياً يحديقاً للأمام، كون الأمر لا يستدعي منه كلاماً فوق الذي قاله، فحسب اعتقاده، هو لا يعدو كونه كأى تصرف حسن يغطي أخطاء الغير.

-شكرا سيدي!

كذلك قالت خديجة من فرط ما هربت منها أساليب التعبير، وتركتها تقاوم اللحظة بأبسط الكلمات، لكنها تظل الأرقى. بدأ الصوت الآلي يكرر كلماته المعتادة «القطار القادم من... وإلى...» ينذر با إبراهيم ومن هم في موقعه بالتهيؤ للحفاظ على النظام. يبشر المنتظرين السائمين من دقائق تعذب راحتهم الحاملة براحة أكثر للاستعداد، منتشلي تخیلاتهم التي تعد بوصول سليم وهم في وجهاتهم من المستقبل. نهض الجالس من مكانه، والواقف أكد استقامته، قد سبق بخطوة استعداد. الكل يقف باحترام وتركيز، تكاد تراهم جموعا لا تحد مقدمتهم سوى سكة القطار.

ومجرد مجيء القطار، بدأ البعض يتخلون عن هذا الاحترام وكل ما اتصفوا به منذ قليل من نظام. يتسابقون نحو الأبواب، لا يدعون حتى القادم به يهبط دون إلقاء كلمات من قبيل «المعذرة... المعذرة رجاء... رجاء، دعونا نزل أولا... دعوا الأسبقية لنا...».

توقفت خديجة عما كانت تقوم به. كعادتها تنتظر هدوء المكان ليصعد الصاعد، ويهبط القادم، وينطلق كل في وجهته المختارة. ظلت تراقب ما حولها. تستعين بمكنستها للوقوف وقفة مستقيمة متسمة. تبحث عن أن تُرى جديتها بمظهر أكثر التزاما في تأدية الواجب. وفي نظرة من نظراتها الاستطلاعية، وقد كان الركاب في تناقص ظاهر، رمقت خديجة محفظة وحيدة تتكئ على أحد المقاعد بوضعية تنذر الناظر بسقوط وشيك كلي على الأرض. تشبهت لها بمحفظة ما مرت من أمام ناظرها. راحت تتسلل داخل ذاكرتها، تحاول أن تنقض على ذكرى قصيرة تنشطها، وتمنحها حق التذكر السريع.

عادت تقول وقد صارت متيقنة التخمين:

-نعم تشبهها! تلك التي كانت بيد الرجل... الرج ذاك!!

أخذت تتفحص المكان، أين رجل الأعمال. تسأل نفسها: هل سعد أم أنه في مكان قريب يستعد للصعود؟ كانت تتحرك بخطوات متقاربة، يكاد جزؤها العلوي فقط يتحرك. تجوب أصغر مساحة رسمتها لنفسها كحدود جيئة وذهابا. متوترة النظرات، مضطربة الحركات، كأنها تهرب من وقت يداهما بغتة دون أن تشعر.

مرت دقيقة، كانت تؤمل نفسها أنه سيظهر، سيأخذ حقيبته، لكن لا شيء من هذا وقع. تجرأت، فأقدمت على حمل الحقيبة، ضمتها إلى ذراعها الفارغة، واضحة مكنتها بحيز ثابت حتى لا تتهاوى وتسقط. ترقبت أي حركة فجائية منها.

ورغم ما بلغته من حيرة الفعل، أخذت تستعد، ووسط كل هذا رمقت الرجل من إحدى النوافذ القريبة لباب الصعود. دفعها هذا لصعود القطار، وإما عزمت لهذا بهدف واحد؛ تسليمه الحقيبة. وقفت مترددة لثوان امتدت مهداهمة الوقت، حتى خرجت بقرارها
قائلة :

-لا خيار، سأصعد! فرمها بها أوراق مهمة في مجاله... لكن هذا مجهول النتائج... آه، يا إلهي! ماذا لو انطلق بي القطار؟
فها هي تضحك ضحكة ساخرة وتقول:
-حظا سعيدا... (لي ليها ليها!)

صعدت أخيرا القطار. تحس وكأن المكان ما عاد يسعها من فرط ما سارت سيرا سريعا، واطعة لنفسها مدة زمنية محددة، والعد العكسي قد بدأ. تتجاوز الناس، غير مبالية نظرا لاستعجالية الأمر، تقوم بإشعارهم صائحة: «عاجل! عاجل!». كانت واثقة الفعل من أنها ستعطيه المحفظة، راسمة في خيالها لحظة التسليم، لحظة الشكر الذي ستتلقاه من الرجل، لحظة الهبوط من القطار بعد إنجازها الصغير هذا والذي ستحتفظ به فقط لنفسها.

واصلت التقدم إلى أن وقفت تتأمل وتتساءل: «هل النافذة التي تجاوزتها للتو هي التي رأيت الرجل واقفا عندها؟» كان الوقت يداهما،

عليها الإسراع، وإلا فالقطار سينطلق بها. راودتها فكرة العدول عما هي مقدمة عليه، فوضعها لا يسمح بتصرف كهذا. وبينما هي ماضية في خطوتها، متخبطة القرار بين العدول أو الاستمرار، رأت الرجل خارج القطار، كأنه يبحث عما ضاع منه، يبدي شيئاً من الإحباط في حركاته. نكد يتسيد اللحظة التي ظهر فيها. ارتعدت أوصالها وساورتها حيرة التصرف. «ماذا أفعل يا إلهي؟» هذا ما جال في ذهنها اللحظة.

انقبضت نفسها، وتسمرت في مكانها، ثم فكرت، فما كان منها إلا أن انطلقت مسرعة. لكن! ليس للوراء الأقرب للباب، بل للأمام البعيد نحو الباب الآخر. لا أدري ما جال في ذهنها حينها. أما عن رأيي: فالبادي أن الإنسان عندما يسعى لهدف يتقدم للأمام، وعندما لا يحقق شيئاً يعود للخلف. يأخذها عادة لاشعورية عند أغلب خطواته.

يا سادة، وبكل أسف، أخبركم أن القطار قد انطلق، انطلق انطلاقاً تتزايد سرعتها مع كل مسافة يقطعها، معلنا بداية الرحلة، وفي متمنياته السلامة للركاب.

ارتبكت دواخل خديجة، واضطربت اضطراباً فوضوياً من شدة ما حصل، ما عاد فكرها يسلك المسار المعتاد من كثرة ما سعت لفهم الحاصل. كان كل هذا وهي تتقدم خطوات جد بطيئة، دون إدراك منها. أحست في لحظة ما أنها وشيكة الركض، حتى هرعت نحو الباب، على أمل أن يتوقف القطار لسبب ما، فتستطيع حينها النزول، وهو شيء تعلم أنه بعيد التحقيق. أخذها شيء من اليأس والإحباط لما وقع الآن. تستغرب قساوة الأمر، وهي التي ما نوت إلا الخير في فعل لم يكن يستدعي التضحية.

أخذت تفكر في صمت قرب باب القطار. تتربص بأقرب حل يزور ذهنها المشوش الذي ما عكف يستنجد بحل حتى ينصرف للسؤال:

-يا للمصيبة! ماذا أفعل في حالي هذه؟ ما مصيري الآن مع مسؤولي المحطة؟ سأطرد جراء الاستهتار... ماذا سيقول با إبراهيم إذا لم يجديني؟

أنت حمقاء يا خديجة، مجرد حمقاء... أكان علي حقا اتخاذ خطوة
متهورة من امرأة لا تعدو كونها عاملة نظافة أقصى فترات غيابها جلب
سيجارتين لبأ إبراهيم من المقهى؟... غبية! غبية!

حقيبة تجول

كانت كل مسافة يقطعها القطار، كل مدة زمنية تنقضي، يزداد أسفها لما قدمته من موقف شجاع، وحيرة تملكتها حتى لبثت في قلق وانهييار تام. وراحت تلتفت في جانبيها محدقة بمحيطها. ثم امتنعت في التحديق مجددا، مكتفية بما وراء زجاج باب الصعود من عالم ظهر كم هو متسارع النقلات، لا يمنحك وقتا كافيا للإمعان، بدا لها انعكاس لما يحدث داخلها الآن. فمن شدة اضطرابها المتسارع، تمتت للحظة أن تمسك بفكرة تخرجها من حالها الذي -وعما قريب- سيظهر للغير حالا بأثسا منهارا.

اصطدم رأسها بجدار من الأسئلة. وما عادت تستطيع طمأنة نفسها. فعهدتها على التفاني والاستقامة سينكسر، وتختفي تلك الصورة المأخوذة عنها. حالها صار كطائر منذ قليل كان يخلق بحرية وسط نسيم من الهدوء، والآن صار مكسور الجناح ينتظر مصيره. فاجتاحها شيئا فشيئا حزن كبير مرده إلى شدة القلق والخوف، ومدة العمل القليلة.

تأتي على الإنسان لحظات انهزام تبلغ مبلغ الخطر على الشعور، فيأتي صوت من الداخل ينبعث خلال دقيقة الصمت التي رُحت تحادي فيها أقرب حائط ليضمك، فتستند عليه حتى لا تسقط كل ذرة أمل، صوت مبعوث يصيح في كل ضلوعك، حتى ينشرح الصدر، ربما هو التوازن الإلهي الذي يتدخل من أجل تذكير الروح بأن أقصى الحوادث ما كانت لتبلغ الموت، هي أيام صعب وحتما تمر، وكذلك أيام فرح وحتما تنقضي، إن اليأس قاتل والفرح غادر.

بين كل هذا خاطبها داخلها يطمئنها:

-وماذا قد يحدث؟ هل سأموت مثلا؟ آه، بل سأمنع من العمل في كل مكان بهذا العالم... وكيف تعتقدين أنهم لاحظوا غيابك؟ وهل هم حقا يلاحظون وجودك حتى؟ كفاك تخريفا، ساعة غياب وستعودين، عندها ستختلقين أي مبرر آخر...

قيل هذا وسرب من الهدوء غزا داخلها. تشبث بأتفه الأمور، وتعود لتكسر هدوءها بأتفه الأفكار والوساوس. جل ما شغل بالها كان أن يتسبب هذا في طردها، فهي خائفة ماضية في خوفها، لأن الأمر وبكل بساطة يتعلق بالمدة التي عملت فيها، كون الأشهر الثلاثة لم تجعلها تمر بحدث كهذا ولا هي أقدمية تشفع لها الغلط، كما لم تُكسبها الاعتقاد اللازم أن هذا شيء عادي، لا يستدعي كل القلق والاضطراب المصاحبين لها.

-أوف، أوف... حظي العاثر دائما هو هكذا، أكبر عدو لي... ماذا فعلت لأستحق هذا؟ لم أنو سوى الخير... (دير الخير ما يطرا باس). تقول هذا وذاك في محاولة بائسة لتدارك الأمر. فالإنسان يعيش خطابات داخلية تبرر الفعل كأنه استنطاق داخلي، لك الحق في التحدث كما في الصمت، هنا يكون التحدث رغبتك، تبحث عن الوصول لشيء ما وتعود لتستنكر ثم تستدرك قائلا: ما الداعي لكل هذا؟

خديجة بدأت تترك حالها هذا، وتخطط لما هو قادم. فقد خيل لها لبرهة أن القطار سيتوقف في محطة الدار البيضاء الميناء، والتي ستصل لها بعد دقائق قليلة. ستهبط منتظرة القطار العائد إلى محطة المسافرين، فالأمر لن يتطلب منها سوى نصف ساعة كأقل تقدير، وهكذا تكون بخير، تسلم المحفظة لإدارة القطار، وتعود مؤدية عملها، وربما تطلب باقي ساعات اليوم راحة تسترد ما سلب من طاقة إيجابية، تلتقط الأنفاس الإيجابية، وترمي السلبية في كيس القمامة.

-ألا تسمع يا رجل! مخافة ألا يفوتني القطار، قلت مع نفسي أن أنتظر إلى حين صعودي القطار، وأخذ التذكرة من حضرتكم. هل أبدو لك من أولئك الصبية المتلمصين من اقتناء التذاكر؟

جذب خديجة وفي خضم ما يكون أشبه بنقاش نفسي داخلي تعيشه، صوت نسوي عنيف، امرأة تحاول أن تكون أكثر صراخا في لهجتها ليتبين أن الحق معها. اكرثت فاستدارت تستعلم ما الواقع مع المرأة. كانت السيدة وهي تبدو في الأربعينات من عمرها تصرخ وتستبيح لنفسها رفع صوتها أكثر من اللازم- النساء في هذا السن يصحن بركانا هائجا- قد سعدت للقطار دون اقتناء تذكرة، والطرف الثاني مراقب التذاكر، في أثناء جولته المعتادة على الركاب، كان قد اصطدم بالمرأة القوية المتشبثة برأيها، والتي تدعي أن الوقت خانها، وهو ما جعلها تقرر الحصول على التذكرة من داخل القطار. تصلب وجه المراقب، وتدفقت شرارة الغضب من عينه، وثار من شدة ما حاول أن يفهمها أن الأمور بخير، وأن لا داعي للأصوات المرتفعة:

-أيتها السيدة... لقد كان أسلوبك لبقا! به احترام، وأسئلتني استطلاعية لا غير، وأنت ماذا كان ردك؟ وكأننا وجهنا لك تهمة قتل... تعلمين وأنا رغم الأوامر التي تعطى، فإننا وبكل سعة صدر نتجاوز تلك الأوامر متساهلين مع الناس.

قال هذا وتجاوزها مكملا عمله.

-ها... (حتى الواحد كيقصح معاكم الهضرة).

التفتت السيدة توجه له هذه الكلمات. وبمجرد أن استدارت، صارت تحديق في تعابير الناس الواقعة في مرمى نظراتها، وتتفحص التذكرة من كلا الجانبين، ثم انتبهت للباقي من المال، فالمراقب أرجع لها الباقي وهي منهمكة في الصراخ، فخيّل لها في لحظة أن الباقي تنقصه بعض الدراهم، لكنها عادت تدقق الحساب، لتجد أن الباقي لا شيء ينقصه، سوى أن يعود لمحفظتها الصغيرة المعصورة تحت قبضتها المتماسكة جراء عصبيتها المفرطة.

ظلت خديجة تراقب الوضع وما آل إليه. كانت قد انجرت للأحداث متناسية وضعها الحالي وعاكفة على صمتها الراهن. ولم تكد تمضي دقيقتان على الحدث حتى جاءت أصوات أخرى إلى مسامعها، كان هناك زوجان يتكلمان بصوت خافت بدأ يتصاعد مع حرارة الحديث، حتى صار واضح المعاني لمن في الجوار. قال الرجل لزوجته بلهجة سخاء:

-ماذا تطلبين يا امرأة؟ ممم... سندويشا بالدجاج أم الكفتة.

-لا! لا! لا أحب أطعمتهم البائثة، كما أن أئمتها غالية... أفضل

إحضار الطعام من المنزل. حقا لا أريد.

-أضحكتني... حسنا، أين هذا الطعام الذي جلبته من المنزل؟ إني لا

أرى سوى كلام متعنت يدافع عن فكرته وسط الجوع.

أخذ الزوج ينادي لبائع الأطعمة، والزوجة غارقة في حصر الأسباب،

ترفض الخروج من معركتها خاسرة، فأحيانا يخيل لهن وهن على باب

موضوع صغير أنه ذو حاجز فولاذي قد يستقوي باب آخر خلفه.

وكأول إجراء في قانون البيع والشراء، راح الزوج يسأل عن الثمن، إلى

أن انتهى به المطاف يقتني سندويشا له ولزوجته مع قنينتي ماء صغيرتي

الحجم. وبمجرد استلامها السندويش، شرعت تأكل بتلذذ واضح.

خاطبها الزوج ضاحكا:

-إنه الجوع يا امرأة، الجوع يدع المرء يأكل كل شيء.

قال هذا وهو يزيح الغطاء عن السندويش استعداد للأكل ثم تابع:

-إن الجوع ليدعك تتخلى عن أفكارك وخطباتك ومبادئك. ها أنت

ذي سقطت أمام أول فرصة أتتك لتكبحي صراخ الجوع داخلك. ربما هذا

ما يفسر ضعف البعض، رغم داخله الثوري المتشبع بأنبل الشجاعات في

مواجهة هذا العالم المتسلط المستبد.

وعاد ينظر لزوجته مردفا:

-لكن هذا لا ينكر لذة طعام زوجتي... على كل حال... (ناكلو و

مولاها ري).

اتفقت خديجة مع كلام الزوج، فالجوع عدو للإنسان، يجعله ينسى من هو. فالمرح يتخذ خطوات التهريج ويضحك الناس فيه، ويسخر من نفسه في جو مرح للمتفرج طلبا في مال يسد به الجوع. كذلك المتسول يقف في قارة الطريق بوجه مكشوف وكأنه ممثل، وكأن الحال يوهمه أنه يتقمص قناعا، ويده اعترها العياء من شدة مدها للاستعفاف، كل هذا في سبيل مال يسد به الجوع. فحينما يتعلق الأمر بإسكات أصوات بطوننا من الجوع، فإننا نضطر إلى إسكات ضمائرنا من أي انتفاض على قباحة التصرف، يصبح كل شيء مباحا، متناسين أن هناك شريعة سماوية وقوانين وضعية نحن ملزمون بالتقيد بها.

إنهن نساء يقاسين وسط حياة مرهقة كليلة لا تمنح حتى أبسط ظروف الراحة، لا يوجد حتى من يمد لهن يد المساعدة إلا من رحم ربي، وأب الابنة يستوطن عالم النكران، لا يفكر في ابنته، بل راح يتزوج منجبا آخرين متناسيا أن ابنته تحتاج لأبسط المطالب. إني لا أدري بأي فكر يمشي هؤلاء في حياتهم، ماضين غير مترددين في حجب أبناء من صلبهم عن مفكرتهم اللعينة.

ردت خديجة وقد أزاحت يدها عن موضع قلبها، وعاد نبضها لطبيعته دون زوال توثر بدا ظاهرا عليها:

-لا تؤاخذيني! فإني متوترة خاطر ومبعثرة الأفكار.

-ماذا هناك؟ أنا منذ البداية أحسست بشيء سيء حدث معك... (

شئ واقع أصابتي؟)

-إني واقعة في مشكل... الحقيقة ربما لا يبدو مشكلا في نظرك، لكن...

(قلبي ممريحنيش والله).

كذلك تكلمت خديجة، وفي عينها تعجل في مصارحة صديقتها بالمشكل، لعلها تجد حلا أو كأقل تقدير تريحها بكلمات ما. تلك الأوهام التي نجبر بها خاطرنا في مسعى لوقف تدفق الأصوات الخائقة الساعية لإقناعنا بنهاية داجنة.

لقد حكمت ما عاشته في هذه المدة المنصرمة، والتي انقضت بما لا يسر خاطر عاملة بسيطة جل ما تسعاه تأدية واجبها والعودة إلى جدتها بقففة لوازم احتياجية، وما تبعه من أحاسيس سيئة جعلتها تكره هذا اليوم دون انتظار حلول الليل حتى يكون حكمها عادلا، إلا أنها سرعان ما قوبلت بالتهكم والسخرية من صديقتها، التي أكدت لها وهي تسخر من خوفها أن الأمر عادي، غيابها هذا لن يسبب لها أي مشكل، وأن الأمر لا يرقى لأن تملأ به ذهنها.

قالت تمازحها وهي تلمس الحقيبة بيدها اليمنى، فتعود لسحبها بسرعة متناسية أنها تضع قفازات من شأنها ترك بعض الأوساخ:
-هل هي ممتلئة بالمال؟ لعلنا نسعد في أيامنا التعيسة هذه ولو قليلا... (تمشيو غير نفوجو في جزر المالديف... قولي ليا طلبيهها غير صغيره...).

-نعم يا سيدتي... (فين بغيتي تمشي؟ غير تشهاي ليا وأنا معاك... في راسك راه ثقيله بالفلوس...)

سارت خديجة على نهج صديقتها في المزاح. تحاول خلق جو قد ينسيها ما هي فيه. تابعت تقول:

- لا تقلقي، فأنا أعرف حظي... (كاع هذا زهر عندي نلقاها عامره بالفلوس... غير حلمي أبنتي...)

ردت صديقتها وهي تكاد تنفجر ضحكا:

-تذكرت يوم وجدنا أثناء سيرنا في حي ال... ورقة نقدية من فئة مئتي درهم، كانت تلمع من شدة زرقتها، فالتقطتها على وجه السرعة، إلى أن استوقفك أحدهم... كان يبدو كأولئك اللصوص الذين يصطادون ممتلكات الناس على دراجاتهم النارية...

-نعم، وقد قال أنها ملكه... (عصبي داك النهار! ولا يقول ليا ديالي، طاحت لي...)

-لكنك كنت بألف رجل، حين طردته وأقنعتته بالرحيل فقلت: (سير

بحالك... شوف أنا غادي نديها دبا لكومياريه، هما اشوف ديامن...
صافي تهنيتي دبا)

قاطعتها صديقتها وهي ما تزال تضحك:

-فقال لك: «حسنا! دعينا نقتسمها... سنقسمها إلى نصفين... لا، فقط

أعطيني خمسين درهما، ذلك يكفيني».

-نعم، لقد كشف نفسه، وتحول من شخص يطالب بها إلى شخص

يريد منها فقط خمسين درهما... (قاليك يا لاله: والله يا أختي مزال

مكामيش من الصباح، غير شو في كفاش ديري).

كانت ذكريات مضحكة، بتذكير من صديقتها، قد قدّمت لها ذاك

الهدوء الغائب، وتبدّد الخوف والقلق في ثوان لم تستطع فيها إلا فرض

اهتمامها على ما هداها. أتساءل أحيانا: لماذا لا نستطيع إراحة أنفسنا

وسط آلامنا وقلقنا بتلك الذكريات الجميلة، المضحكة، المخبأة في أعماقنا،

منتظرين من الغير أن يقوم بذلك؟ أهـي بذلك العمق الذي يصعب

علينا سحبها وجرها إلى السطح؟ أم أنه ليس لنا سلطة على ذواتنا؟ لكن

ما أقوله: لست متأكدا أن الكل قادر على استحضار هذه الذكريات.

نستطيع القول الآن أنها مدت يدها للحظة، وراحت تتحسس

شكل الراحة والهدوء كيف هما. الجميل في الأمر أنه كلما غابت عنك

الأحاسيس والأجواء الجميلة، عدت لعيشها في صورة متجددة، كأنك

تعيشها أول مرة. إضافة لهذا، وما زادها راحة، هو كون صديقتها تعمل

في هذا المجال قرابة الأربع سنوات، مما عزز الاعتقاد الذي آمنت به

الآن داخلها.

ها قد وصل القطار لمحطة الميناء. تأمل خديجة أمل المحتاجة

لضرورة الأمر أن يكون هناك قطار ينتظرها على السكة المقابلة، ينقلها

على وجه السرعة لمحطة المسافرين، دون أن يطول انتظارها على جنبات

السكك، ويا للصدفة! كان هذا أول شيء أحست حقا أنه بجانبها، أن

الحظ بدأ يطوف قربها، جاء القطار لتوه يصدق صدحه المعتاد.

-الآن سأدعك، نلتقي... (بسلامة الخائية، نلتقاو).

-نلتقي... (غير مطوليش علينا الغيبة!)

هكذا ودعتا بعضهما البعض، وهبطت كل واحدة في سبيل أمرها. انطلقت خديجة نحو السكة الأخرى. تعلوها ابتسامة مشرقة من تبعات لقاء جاء صدفة مع رفيقتها كقطرة ماء في حلق ظامئ وهي التي ظمئت لحالها الهادئ مع مكنستها. لقد صارت منشرحة الصدر، ملمت ما بعثر بداخلها، قد اقتنع داخلها أن الأمر بخير، ليس هناك داع لأية ذرة قلق.

وإلى وجهتها، قد أخذت ترسم مشهدا استباقيا لما سيحصل، إنه كالآتي: ستهبط من القطار، وتتوجه نحو إدارة المحطة لتسلم المحفظة، ويا للصدفة! ستجد في طريقها رجل الأعمال جالسا جلوس المترقب، يواصل ضرب قدمه اليمنى بخفة على الأرض ويدها متشابكتان إلى الأمام، ومرفقاه مسندان على ركبتيه، يشعر بالأسى حيال ما وقع، هفوة منه ضاعت الحقيبة، ولأهمية ما فيها، انتفض داخله تأنيبا... تتقدم خديجة ويدها الحقيبة، تخاطبه بكل ارتياح، تعلوها ابتسامة انتصار، وكأنها للتو خرجت من معركة منتصرة أبهة للخاسر ومنتعشة بالانتصار، فيقوم هو الجالس برفع رأسه مع ابتسامة تدرّجية، يضم فرج الله القادم، ويفتح باب اللحظة لطرده الأسف وأعوانه، ويشكر خديجة لما قامت به، ثم يحثها على ذكر مقابل لصنيعها، فترفض وبشكل قاطع الأمر.

المحامي

أضحى يوم الرجل صعبا مقيد الخطى، وبات على شفير وادي اليأس، يتمايل حتى يعطي نفسه حق الإيمان أن الأمر زائل كما زال غيره من الأوقات الصعاب، وما لوقع الحوادث على نفس الإنسان مهما بلغه من جلد، فها هو يلوم نفسه بكافة العبارات التي دقت فكره دون أن يوقفها إلى أن تتوقف بنفسها (يعتقد أنه يستحق).

إن ما في الحقيية يعني له الكثير، ولا يقبل خسارته، فهذا يمس بصورته وسط عمله المجهول الذي لم يفصح عنه بعد. والآن يجب أروقة المحطة، ويعود إلى المكان الذي ترك فيه الحقيية. لقد أخذ الاستسلام يظهر في خطواته التفتيشية التأملية هذه، إلى أن قرر الذهاب أخيرا لمكتب الإدارة بنية التبليغ عن ضياع حقييته.

اتجه مسرعا منكسر الخطى، يجر وراءه نظرة حسرة كم كانت ثقيلة وازنة. آمن أن لا يدخل حالة خيبة كبيرة حتى يتيقن الأمر لآخره. لم ينو استعمال كلمة «سرقة» في الموضوع. كما أنه اعتقد اعتقاد العاقل الناضج أن الحاصل خطؤه، وإن سميت سرقة، فهي ليست مباشرة، بل هو استهتار من مالكها، وكأن الأمر أشبه بالتخلي عنها، فلا يمكن لوم أخذها بأي تهمة من التهم.

-تقول إنك تركتها عند المقعد... وكيف هو شكل هذه الحقيية؟

كان هذا مدير المحطة قد باشر أسئلته الروتينية، في محاولة منه التقرب من الصورة أكثر، وهو ما ينم عن جديته في التعامل مع شكايات الناس، وإن كان غير هذا، غير الذي جئنا بذكره، فإنه على الأقل يقوم

بالإجراءات الاعتيادية الموضوعة في سبيل الاهتمام الذي يحتاجه المسافر، حتى يتقبل الأمر لما بعد التحقيق إذا لم يجد ما له.

تابع يقول:

-أنت تفهم يا أستاذ، المئات من الناس تستقل القطارات في وجهات متعددة، فضياع شيء هنا يكون كضياع إبرة في كومة قش. هذه هي محطات القطار.

تنهد في نصف وقفة من الكرسي كي يجدد جلسته، وأردف بسؤال:

-أيمكنني أن أسأل عن مهنتك، ها؟

أخرج الرجل بطاقة سوداء سميكة الأطراف عليها بعض الخطوط والكتابات، وقدمها لمدير المحطة قائلاً:

-الأستاذ فؤاد ال... محامي بهيئة الدار البيضاء.

-آه! الأستاذ فؤاد ال... عدننا. قد سبق لي السماع باسمك وإنجازاتك.

إنه ليوم كبير يا أستاذ.

قابله المحامي فؤاد بتحريك رأسه كشيء من الشكر والإطراء على كلماته.

اتضح إذن وللكل غير خديجة المسكينة التي ما زالت تحسب الدقائق للوصول، أن رجل الأعمال هو محام معروف بهيئة الدار البيضاء. اسمه معروف لدى الكثير من الساكنة، خاصة ذوي الطبقة السياسية ورجال الأعمال، وحتى الطبقة المعوزة.

كان قد اكتسب شهرته من القضايا التي دافع عنها، إذ أنه لم يخسر أي قضية، وما ميزه عن غيره من المحامين أن باب مكتبه مفتوح للجميع، لا يقتصر دفاعه عن الأغنياء ساعياً وراء المال، بل حتى أولئك الضعفاء من الطبقة الكادحة.

ولعل ما يعاب عنه هو دفاعه الكثير عن المدعى عليهم. إنه إنما يجسد بهذا قاعدته التي يؤمن بها: «إن الخطأ طبيعة إنسانية تقود المخطئ نحو الصحيح، لذا فهو يحتاج فرصة أخرى، يصحح خطأه

المنحط قبل أن يرحل دون هذا التصحيح». يدافع عنهم، ليس سعياً نحو البراءة، بل طلباً في تخفيض العقوبة، حتى يتسنى لهذا الشخص التكفير عن ذنوبه بإصلاح مادي لا إصلاح روحي فقط. لكنه في مقابل هذا، يتعهد مكرر الخطأ أنه ذو حرص شديد على عقوبة أشد إن أبي التوبة، تطاله ودون تردد.

يملك مكتبه الواقع في حي... المكون من ثلثة من المحامين الشباب الممتازين. تلقوا تدريبهم على يده. فقد بدأ كغيره من المحامين بمكتب صغير بمدينة الصغيرة -المحمدية- يتربص بالقضايا الكبيرة التي لها زخم في الوسط العام، مؤمناً أن هذا سيقوده إلى حلمه بتأسيس مكتب كبير من المحامين، يعملون لديه، يحققون مبدأه، يدافعون عن توجهاته. إن كل من عرفه دون هويته الضاربة في بقاع المدينة، خيل له أن الواقف أمامه رجل أعمال من شدة أناقته التي تشبه رجال الأعمال الإيطاليين. هذا الأمر راجع لطفولته القريبة شيئاً ما من القساوة، حين كان يعاهد نفسه في لحظة حرمان: «لا شيء سيقف أمام أحلامي، سأشتري ما أريد، وألبس ما أريد...».

قد نقول أن الإنسان في ظروف مماثلة يعوض ما فاته في الماضي البائس، ملغياً قاعدة «لكل شيء وقته». ولكي لا ننسى كرمه مع الضعفاء، فمن شدة ما كان متشوقاً لفعل الأعمال الخيرية كما فعل الكبار في وقت صغره وضعفه، صار يوزع المبالغ الضخمة التي يتقاضاها من فاحشي الثراء نظير قضايا ربحها على من يعرفهم من المساكين، حتى يتبقى ما يقنعه أن الباقي راتبه الحقيقي، فهو دائماً ما يردد القول التالي إلى حد المضى في تنفيذه: «لا يهم المال المحصل عليه ولا طريقة الحصول عليه، المهم أني آخذ ما لا كان سيذهب لغيري، دون أن يبدي هذا الغير أدنى خطوات التضامن مع المساكين كما أفعل».

كان الحديث مستمراً، ولقد امتد لأشياء أخرى خارج الموضوع الأصلي من طرف أحادي غاص فيه المدير بأنانية ومصلحة ظاهرة، إلى

أن رن هاتف المحامي، هو اتصال من زوجته. أخذ سريعاً يستأذن الرد:
-أجل...

-أنت لم تنس الأولاد يا فؤاد، الساعة الثانية عشر... كما تعلم، أنا
اليوم غير متفرغة للأمر، لدي قضية مهمة.
-حسناً، أنا مشغول بعض الشيء...

أغلق الهاتف على زوجته. وهي لم تعاود الاتصال. ربما هي عادة
منه اعتادت عليها، وربما منشغلة اللحظة بما لا يسمح لها بكلام كثير.
مما يستحق الذكر أنها محامية بمكتبه منذ أول يوم افتتحه. نستطيع
القول أنها كانت القطعة الأخيرة للجسر الذي قاده لحلمه. تلك الزوجة
الغنية التي ورثت ثروة ضخمة من أبيها، والذي اعتبر أن فؤاد هو الزوج
المثالي لابنته. له منها ابنان كلاهما يدرس في المرحلة الإعدادية، تواقان أن
يسيرا على نهج أبويهما لما يعيشانه من طاقة إيجابية في المنزل.

صاح المدير ينادي أقرب الموظفين له بلهجة حازمة:

-أحضر لي با إبراهيم وجواد في الحال.

ثم استدار يكلم المحامي رشيد بلهجة ساخرة دنيئة:

-هذان الشخصان، حقاً! إنهما لا يتوقفان عن الحركة... ينادى عليهما

عين الصقر. إنهما... (سلعة قديمة ولكن باقين شادين في روسهم).

ظهرت على المحامي بسمة المسائر الراض للنعته الذي قيل في حق

العاملين، ما لبثت تظهر حتى تختفي وسط شعور غير مؤيد سريعاً ما

يعكس سريرة الإنسان، دافعا إياها للطفو على الأسارير في مرأى من

الملاحظ.

قد يصعب على من هم في مكانته أن يتنازل عن رفحته ويعامل

ذاك العامل بما يليق به كإنسان أولاً ثم كأخ وصديق، وما أقصده هنا

هو الجانب النفسي للعامل، والذي قد يداس عليه ظانين أن الجانب

البدني هو المرام احترامه من تقليل عدد ساعات العمل وما إلى ذلك من

أيام العطل، في حين أن الكلمة العنيفة قد تكون أقسى.

قد غاب الاحترام تجاه العمال، واختفت تلك الرسمية في الحديث، ليس إلا ذاك الكلام اللبق الخادع تجاه من هم أرفع من مستواه. هذا هو الإنسان، يمتلك السلطة كسكين يغرسه في من هم أضعف منه كجبان حالم بقوة ثعبان ينقض بخبث على كرامة وشرف المرء، يتلذذ، مواصلا إهاناته الحقيرة، في سعي منه لإظهار حاله الضعيفة تلك.

حضر با إبراهيم ومن معه، يترقبان خطابات المدير المعتادة، مفرداتها تجعلك تنقبض منها غير راض عن بدايتها ولا نهايتها، حتى أن المحامي فؤاد لاحظ ارتسامها على محياهما، فأخذه الحال إلى أن يتمنى فقط إسراع الأمر مبتعدا عن أجواء كهذه. فقرر أن يكون مفتتحا للأمر، يسألهما، كإعفاء لهما مما هو قادم.

قال وقد أبعد ظهره عن الجزء العلوي للكرسي متكئا نحو الأمام، ضامًا يديه بشكل ملتحم:

-يا سادة، الأمر وما فيه، أن حقيبة تعود لي قد ضاعت في السكة الثالثة، تحديدا في المقعد الأقرب للدرج الكهربائي. نسيتهما بجانب المقعد على الجهة اليمنى... أنا أعتزف أي المخطئ في الأمر، ما كان يجب علي نسيانها... إنه البال، وكثرة المشاغل...

نظر إليه المدير بنظرة استغراب للأمر، تفيد أنه غير راض على التصرف الاستعجالي الصادر من المحامي، الذي أكمل يقول:

-الأهم الآن وكما قال لي السيد المدير، أنه لا شيء يفوتكما من أحداث هنا، يمكن أن تفيدنا المعلومات التي لديكما، فرمًا قد تكونان رأيتهما شيئا بخصوص هذا.

عاد شيء من الاعتبار للمدير بعد أن جاء على ذكر اسمه، حتى أنه بدأ يحرك رأسه على حقيقة ما قيل أثناء الكلام. فقام يوجه سؤاله للعاملين:

-با إبراهيم، هل لديك فكرة عن الأمر؟ وأنت... (يخاطب العامل الآخر)، الأستاذ فؤاد يصر على أهمية ما في الحقيقة... أنت با إبراهيم

كثير التنقل بين السكك، ألم ترَ الحقيبة إن هي سرقت من طرف أحدهم؟
رد با إبراهيم وهو يسعل في محاولة منه لاستعادة صوته الذي
تعب وبان مبحوح المخارج:

- لا يا سيدي... لم أر شيئاً يخص محافظة السيد، لكن دعني أسأل
عاملات التنظيف (وقعت بباله خديجة مع العاملات الأخريات) ربما!
ربما يكون لديهن علم بالحقيبة.

تمتم العامل الآخر بريبة واضحة، فانتبه له المحامي وقد صار
يتأكله الفضول باهتمام بالغ، فخاطبه يقول:

-نعم! أقلت شيئاً أيها الصديق...

-جواد سيدي، ذلك اسمي.

تابع الكلام بسرعة. أحس أنها لحظته في الكلام. عزم أن يتكلم،
أن يشارك في الحوار، فغالباً حينما يمنح العمال حق التكلم يقدر
الموقف، ويعظمون كل كلمة تخرج من فمهم، ترفعهم مكانة وتقديراً.
إنه الحرمان والقمع مع الكبح والإحساس بالدونية. وقد كان رجلاً ضخم
الجثة عريض المنكبين، أسمر البشرة. قال متحمس النبرة:

-سؤال يا أستاذ: ما الساعة التي ابتليت فيها بهذا المشكل؟

ضحك المحامي وقال:

-أجل! أجل! أصبت، هو ابتلاء... أعتقد أنها كانت الساعة العاشرة

أو العاشرة والنصف.

عزم على الرد سريعاً، إنها لحظته، فالكل يتابع باهتمام ما
سيقوله، لكن المدير أبي إلا أن يتكلم، قد أحس أنه ملزم بمنح حق
الكلام للعامل، حتى يحس أنه مسير هذا الاجتماع، فقال على غير
عادة يضحك:

-حسنات ما لديك، وأبشرنا، أبشرنا حتى نبشر الأستاذ. آه، كم

تمنيت لو أننا التقينا في ظروف أفضل...

طأطأ المحامي رأسه مع ابتسامة صغيرة استدارت مع استدارته إلى

حيث العامل ينتظر صمت الجميع حتى يتكلم ليضفي على نفسه قيمة
وشأناً، وها هو شرع يقول:

-الحقيقة ولا أعلم إن كنت مصيباً في الأمر، فأنا كنت منشغلاً لحظتها،
مقسماً تركيزي، غير أنني، وفي لحظة تجولي المعتاد... رأيت عاملة نظافة في
السكة الثالثة، كانت تحمل بيدها حقيبة بنية اللون على الساعة التي
ذكرتها يا أستاذ. كانت تنطلق نحو القطار وكأنها تبحث عن أحدهم،
أو شيئاً من هذا القبيل. همت بالصعود للقطار، وقد شاهدتها ترحل...
ربما هي حقيبتك سيدي...

لم يحرك با إبراهيم ساكناً، لأنه لم يسمع اسم خديجة ينطق، لكن
بمجرد أن سمع السكة الثالثة وما جاء على ذكره العامل جواد، اهتز
توازنه وغاص في حيرة وتذبذب، وتبدد الهدوء الذي كان ينتشله من
غارات التعب.

صاح المدير يخاطب با إبراهيم باستفزاز:

-أليست تلك البنت التي أحضرتها يا با إبراهيم للعمل. ماذا
عساک تقول في الأمر؟

كان با إبراهيم متحجر الحركة، لم يستسغ بعد الواقعة، قد تحير في
الرد، ولم ينطق بكلمة واحدة لحظتها.

أخذ المحامي الكلمة بتساؤل واستغراب يقول:

-كانت هناك سيدة تنظف في السكة الثالثة... أهي من تقصد؟

-أجل سيدي، خديجة، تلك المرأة البيضاء.

-إنها خديجة ابنة حي... اشتغلت قرابة الثلاثة أشهر.

ذكر المدير مقر سكنها، كأنه يقول: انظروا من أي حي قادمة
تدركون الذي جرى، حتى أنه جاء على ذكر سلبيات الحي وأمثاله من
الأحياء الشعبية، متناسياً أخلاق السيدة واستقامتها في العمل. فما إن يقع
الشخص في دائرة الاشتباه، حتى يؤتى ذكر الجانب السيء، ويرمى الجانب
الحسن الخَيْر في سلة النسيان، ويا لوضاعة الأمر وقساوته على الشخص.

ثم صار يردد بصوت جازم:

-سارقة، سرقت الحقيبة. تظن أنها ممتلئة بالمال.

أطلق المدير جامّ فظاظته في حكم مسبق مقدّم الجلافة واتهم خديجة بالسرقة لما ظنته من مال موجود في الحقيبة. وهذا الصمت الذي فيه با إبراهيم جعله لا يحرك شفّته بكلمة، دفاعا عن البنت، تدرك أنه ما زال بعد يفكر في الأمر، يقاوم الواقعة بذكريات الاثنين خارج أسوار هذه المحطة البيضاء التي لطختها هنا الآن بغبار رمادي باسم مكنسة خديجة، أنا الذي لطختها، وكأنني أعيد كل الغبار الذي كنسته خديجة في سبيل نظافة المحطة، حتى نرى كم أصبح عليه المشهد. فاخترتني يا مكنسة أو نامي...

أبدى المحامي فؤاد شيئا من الريبة من الأمر. أصر على أن يتأني كعاقل في إطلاق حكم مسبق. لزم موقعه كباحث عن الحقيقة لا يرغب في التحول إلى مدع، فتجربته المهنية جعلته هكذا، لا يصدر أحكاما مسبقا. فقام من مكانه يمشي خطوات قصيرة تجاه باب المكتب، ليقول بعزم تام منفتح البصيرة الكلمتين التاليتين:
-لنتنظر مجيئها.

ضحك المدير مستفزا البعض من جديد:

-ومن قال لك أنها ستعود، ربما لن تعود... أكيد أنها الآن في مكان ما تنتشي بهروبها الماكر مع حقيقة تظن أنها مليئة بالمال... أجل، وربما تحتفل في سر وسط الناس...

-إذن سأزورها بنفسي. أيمنكك تسليمي العنوان؟

كذلك رد عليه المحامي.

-عنوان؟ دعني أتصل بالشرطة تتكفل بالأمر.

-الأمر لا يستدعي تبليغ الشرطة! كما أننا لسنا متأكدين من الأمر.

نحن نحتاج فقط سماع ما لديها. أرجوك سيدي، لنتنظر بعض الوقت.

توتر الجو، ووصل الأمر ببعضهم إلى صعوبة في التنفس، فما عادوا

يحتملون المكان. كان با إبراهيم أحدهم. أخيرا قرر الرجل التكلم، يود الخروج من هذا الشعور.

أخذ يوزع الكلام في اتجاهي المدير والمحامي قائلا:

-لا يا سيدي! أكيد أن هناك خطأ، يستحيل أن تقدم على أمر كهذا، فعهدي بها أنها ذات أمانة ووفاء، لا تقرب ما ليس لها... ربما كان جواد مخطئا في التقدير، أو ربما كانت تبحث عن صاحبها بين الركاب... أجل، أجل، أكيد أنه سوء تفاهم... ربما الأمر اتضح الآن.

-لا! لا! توقف عن قولك كلاما تافها، فحن جميعا نعلم من أين أنتم قادمون... لا أريد سماع الترهات الفارغة، يكفي ما وقع. أنت تقول كابنتي! و الله لو كانت ابنتك الحقيقية ما منعها هذا من الفرار بحقيبة وحيدة بجانب مقعد، طانة أنها ممتلئة بالمال... انتظر، أنا أعلم أنك مخلص لعملك ومبادئك التي لن يشك بها أي أحد هنا، لكن الواقع يقول أنها أذنبت. لذا رجاء، توقف عن تضليل الحضور بالأعذار.

هكذا تكلم المدير وهو يصرخ في وجه با ابراهيم، وقد بدا من خلال أسلوبه القاسي، والذي بلغ وقاحة كبيرة في كل ما يصدره، أنه شخص الأمر، قد صار يعني له كمشكل شخصي، فمدة عمله البالغة فقط سبعة أشهر على المحك، وهو لا يريد ترك بصمة سيئة في بداية مشواره الإداري خاصة أمام شخص بمكانة المحامي فؤاد. فما كان منه إلا أن يهاجم هنا وهنا حتى يظهر بالوجه الجدي المسؤول بحزم. قام بعدها يخرج من المكتب مستأذنا المحامي فؤاد، مناديا العامل جواد أن يلحق به.

وتجدد اللقاء

كانت خديجة، وهي تستقل القطار القادم والمار من محطة الدار البيضاء المسافرين، لا تعلم ما الواقع آنذاك، كيف جعلت نفسها موضوع نقاش حاد تختلط فيه جميع المشاعر من أرقاها إلى أدناها. فالقلق والخوف اللذان امتلاكها أتعباها... كانت المسكينة تنتظر بفارغ الصبر أن تسلم الأمانة لصاحبها وتعود لدوامها اليومي، لكن القدر، وفي خفاء يحضر لها شيئا لم يخطر ببالها مهما اسودت سماء بالها، وتطأيرت أسراب التشاؤم، وهو أن تتهم بالسرقة، و يصل الأمر للشرطة و الحبس... وها هو القطار وصل الآن للمحطة، ومع انفتاح بابه وهبوط خديجة كأول شخص من شدة ما تسمرت بجانب الباب، بدأ قلبها يخفق بتسارع دون سابق إنذار، كما يفرض الحال القائم على صاحبه. تتقدم بخطوات متسارعة وكأنها تجاري دقات القلب المتسارعة مع خاطر متحمس للقادم، وهي تتجاوز مَن أمامها بكل وقار. تواصل التقدم نحو مكتب الإدارة. تواقه لتسليم الأمانة لمالكها، لكنها لا تدري ما الحاصل هناك، ربما ما منعها من ذلك الإحساس الاستباقي الذي ينبعث بداخل المرء، ينذره أن أمرا ما سيحصل لم يحضر، ربما هذا بسبب المكان الذي يعم ضجيجا وصياحا، حاملا معه كل أشكال المشاعر، مشوشا على الأمر برمته.

إن المكتب صار يعمه هدوء وتفكير مطول في الحاصل للفسحة التي منحها غياب المدير، إنهم يحتاجون إلى ترتيب أفكارهم، حتى أن المحامي فؤاد أصبح يفكر تفكيرا مطولا في التضخيم الذي صنعه المدير للأمر، رأى كم أن الأمر صار مغيضا غير مريح بالمرّة.

كسر با إبراهيم الصمت أخيرا، يخاطب المحامي بلهجة تنم عن تحسر ظهر أكثر مع جلوسه القرفصاء. متكئا على الحائط، وجهه للأعلى، ويداه تكادان تتشابكان كرجل مكبل اليدين:

-أنت تعلم يا سيدي، أن هذا المدير يبالغ في رد الفعل، فابنتي خديجة لن تقدم على أمر كهذا، متأكد من أنها ما كانت لتفكر في الأمر، فيكيف تقدم على فعل كهذا.
-ماذا تعرف عن خديجة هذه؟

سؤال واضح الطوايا من المحامي، يظهر نيته في معرفة الكثير عنها.
أجاب با إبراهيم، وقد جلس بالكامل في الأرض متخليا عن جلسته تلك، والأسى يعتصره:

-خديجة، هي ابنة صديقي، ابنة عمارتي و دربي. أعرفها منذ أتت لهذه الحياة، لنقل أني شاركت والديها في تربيتهما، فقد كان لي نصيب من تربيتهما. الجميع هنا يا سيدي ودون نية مجاملة، سيشهد لك بخلق المرأة وتفانيها في العمل والإخلاص، أجل، الإخلاص الذي أدار له البعض ظهورهم! كهذا المدير. أه يا ابنتي على نصيبك العثر الذي أرهقك وأنت شابة... البنت كانت ألطف الناس وأمرحهم. إنك ولحظة تعزفك عليها لفترة قصيرة لتشكر والديها في داخلك على تربية كهذه، لكن المسكينة تدفع ثمن اللاشيء، تقاسي طيلة أيام حياتها...

قاطع المحامي يستفسر وقد بدا متلهفا في معرفة الكثير عنها:
-أقلت أنها كانت لطيفة ومرحة؟ هذا يدل أنها الآن تغيرت لسبب ما .

-المسكينة مرت بتجربة زواج قاس متعب كان لا يدعها تلتقط أنفاسها. ابتليت بزواج أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه وغد حقير من فرط ما كان مقامرا سكيما تذهب أجره عمله للقمار والشرب... فاتخذت قرارها الذي بلغ من القسوة ما بلغه هذا الزواج المعذب بكل أيامه. نعم هي لم تقل هذا، لكن إقدامها على الطلاق كان مؤلما لها، فهي لم تكن

تريد رجلا مثل ذلك الوغد ولا أن تصل للطلاق. أكيد أنها كانت تقول في داخلها لم لم أنعم بالزواج المستقر، بالزوج الصالح، بأجواء أسرية تمتد إلى الشيخوخة، فيطمئن داخلي وأترقب القادم في أمن واستقرار... هكذا كانت تحس، لكنها لم تكن لتقول هذا، فكيف ستقوله الآن وهي إنسانة أخرى؟ صارت مبعثرة المشاعر لأبعد الحدود، غاب المرح والحماس... تلك الإنسانة النشيطة، المرحة، وإن رأيت هذه الأشياء، فهي مصطنعة حتى تقول للغير كم هي بخير، وأن الأمور على أحسن ما يرام. ينظر إلى موضع آخر (كلا يا ابنتي، ما أنت عليه واضح للعيان، لا تخدعي نفسك، فما في الداخل سيظهر للوجود في سهو تام منك).

تلفظ با إبراهيم بكلماته التي أبانت عن أب يتألم على ابنته، فألم الأب يكشر عن أنيابه أمام معاناة الإبنة أكثر من الإبن، يقول: إنه رجل، قد لا يحتاج من التعاطف ما قد تحتاجه الأنثى، فعواطف المرأة في لحظة ألم متدفقة بغزارة كسم يكفي لتغطية الجسد كاملا ليس كإفراز الرجل للعواطف، والذي لن يصل لنصف ما تفرزه المرأة في أبسط الأمور.

ذرف با إبراهيم دموعا سخية، ودعني أخبرك أن دموع العجائز غالية قليلة، فقد ذرف جلها في سنينه الماضية، ووعده نفسه أن يحتفظ بالباقي للمستقبل؛ لشيء يستحق...

أرسل هذا للمحامي الحجم الذي بلغه الموقف من حزن وأسف على الحاضر والماضي، وهو الذي لم يحرك ساكنا، فقد بقي ملازما مكانه، يشاهد با إبراهيم يبكي في عزلة. فالأمر بالنسبة له كان مشهدا قاسيا، فلا قوة أحس أنها تكفي لمواساة إنسان يبكي بسخاء هكذا، حتى أنه أدرك كل الإدراك أن الأمر لا يخص موقف اليوم، بل كانت الفرصة مواتية له ليستحضر الماضي وقساوته، ويبكي على الكل، في بكاء يكون قويا كافيا للوقوف في وجه كل تلك الأحداث. ولو ترك يحكي لقام يحكي عن ماضيه المؤلم كذلك.

إننا نحن البشر وكي نفرح فرحة قوية قوامها السرور والسلام والحب، نقوم بحفلة نعلم أنها لن تتكرر إلا بعد سنة أو سنتين، فنفرط في احتساء الفرح، ونكون متأكدين أنه لم يبق شيء ليُحتسى، كذلك صرنا نفعل مع الحزن، نتألم بدرجة كافية، مستدعين كل حدث مؤلم، حتى نضرب معه موعداً جدياً بعيداً.

يأبى الحزن والنكد أن يبرح الجو، ويأبى الحادث أن ينجلي آخره، وحبذا لو كانت رحمته في نهاية لطيفة. وبالعودة إلى المحامي فؤاد، فالرجل أحس أنه أفرط في المشاهدة دون تحريك تعاطفه نحو الخارج، فقرر أخيراً أن يخرج ما قد يواسي هذا العجوز المسكين، فطمأنه بشيء كان حقاً مريحاً:

-اسمع يا عم، أنا رجل قانون قادم من بيئة بسيطة، من حي شعبي لا يختلف عن حيكم...

رفع با إبراهيم رأسه ينصت كطفل صغير باكٍ يتحسس من جاء يواسيه، وأكمل المحامي يقول:

-أنا شخص متفهم، صدقني لن تجد أبسط المشاكل معي فاهداً... وكما قلت أنت، فذاك المدير ضخم الأمر إلى حد بعيد، فلا تكثر على نفسك الأسى، حتى أن السيدة التي أخذت الحقيبة لن يحصل لها شيء، لا شرطة، ولا محاضر... أنت فقط اهدأ، ولا تفكر في الوضع مطولاً.

قام با إبراهيم من مكانه يود تقبيل يد المحامي، فامتنع الأخير عن الأمر يردد:

-استغفر الله! استغفر الله يا عم!

وكم من فقير بسيط النفس يرمي لتقبيل يد غيره مقابل صنيع يعني له الكثير، له وحده.

-أشكرك يا بني حقاً! فتفهمك العقلاني هذا أراحني، لكنك تعلم أنها ستفقد عملها الوحيد هذا، فذاك المدير لن يتردد في طردها حتى لو كانت بريئة...

قال با إبراهيم جملته الأخيرة طمعا في أن يقدم المحامي خدمة
أخيرة لهما بالتوسط لأجل أن تبقى خديجة في عملها، لكن المدير عاد
جارا وراءه جو العصبية، كما لو أنه هو صاحب المحافظة وبها ملايين
الدراهم.

وأول ما فعله أن صاح يخاطب با إبراهيم بلهجة قاسية تبتُّ في
النفس أن المخاطب مذنب:

-أين هي التي تدعي أنها ابنتك؟ إني لا أراها... ألا زلت تصر على
شكوكك؟ استيقظ يا رجل... (لعب دراري الصغار هذا)!

خرج لحظتها المحامي يستأذن وسط ضجيج الحديث، يحسب المدى
إلى نقطة تطمئننه، قد كان اتصالا ورده الآن من زوجته، أجاب:

-نعم...

-نعم! الأولاد بقوا وحدهم في انتظارك... أنت بخير؟

-مشكل بسيط حدث معي هذا الصباح... اتصلي بأمي لتقلهم من

المدرسة.

-قمت بذلك مسبقا، لكنك لم تخبرني بما يحدث معك. أي من

المشاكل أوقعت نفسك فيها؟

-لاحقا عزيزتي...

-لا، انتظر! ستخبرني...

أود أن أخبركم أن خديجة صارت الآن أمام باب الإدارة تترقب الدخول،
وهي تطرق طرقة ثم أخرى بيدها المنهكة المسلوبة من كل قوة، ولا
زال بها قلق وخوف يتراكم في الجسد فيبعث رغبة في الصراخ كالأطفال،
وانتظرت لبرهة لتأتي بالطريقة الثالثة، لكنها لم تتلق الاستئذان حتى تباشر
بالدخول.

خلف ذلك الباب، كان الصوت صاخبا، لغط وصراخ لم تستغرب منه،
فهذه حال مديرهم الذي لا يهدأ عن المحاسبة لأصغر خطأ سيبدو للغير
شيئا عاديا. تملكها التردد في المواصلة، وفكرت أن تعود في وقت لاحق،

رهما الجو في الداخل لا يسمح بحضورها وفمه الذي لا يعرف غير الصراخ والأوامر، لكنها رأت أن الأمر لا يقبل التأخير، فصاحب الحقيبة قد يكون في انتظار خبر عنها، فرمها حملت في رفوفها أوراقا هامة تخص شركته أو إحدى صفقاته.

جاءها استئذان من نوع آخر كان غريبا بعض الشيء. فتح لها الباب دون أن تسمع أحدهم يكلمها أو يستنطقها: «لم أنت هنا؟». كان شيئا مرييا يبعث في النفس الحيرة والتشاؤم مع تصاعد صراخ لم يتوقف منذ حضورها المكان. لكنها قاومت ما بدا لها مرييا، وتشجعت لتدخل. شيء من الفضول زارها اللحظة، ووسوس لها يستخبر عن الأمر. رأت با إبراهيم والعامل جواد جنبا إلى جنب في صمت تام، كأنهما يتلقيان تأنيبا قد بلغ أشده، وأحد المسؤولين في الإدارة- يشبه لحد كبير المدير- يراقب هو كذلك في صمت مطول.

لا أحد يتحدث سوى المدير الذي كان واقفا وسط مكتبه، يداه مفروشتان على سطحه، لا يزيل نظراته عن الحاضرين، يوزعها بتساو، والاعتقاد أنه لو نظر أسفل لكان مستسلما للواقع، لكنه بهذا يقول: لن أفارقكم اليوم حتى تجدوا حلا لهذا المشكل، ومن شدة ما تلفظ بأقسي كلمات التأنيب لم يجد ما يريجه أكثر من الوقوف.

نادت خديجة با إبراهيم بصوت خافت يكاد لا يسمع، متسائلة عن الواقع هنا:

-با إبراهيم...!

التفت با إبراهيم والعامل جواد في لحظة واحدة، كلاهما مندهشان من وقوف خديجة وراءهما، بل ومن حضورها الآني، غير مهتمين بما قالت جراء ما يريانه. وفي نفس الوقت، شاهدها المدير كذلك! قد زادت حدة رفرفة رموشه، بدا عليه شيء من غرابة الموقف. ظل صامتا لمدة دقيقة يحدق، صار الجميع يحدق بها بذهول مكثف جعل خديجة مشوشة جامدة في موضعها، تحديق موزعة ناظرها على الكل وكأن حالها

يسأل: ما الذي يقع؟ هل اقترفت ذنبا من الذنوب التي راودتني وقد حُذرت منها؟

كسر المسؤول الإداري صمت اللحظة، وخطبها بلهجة جافة لا تختلف وقاحة عن تلك التي قد يتحدث بها مديره:

-أين كنت؟ العالم منقلب على سيادتكم...

أشار له المدير بيده للتوقف، قد كانت ترتجف بعصبية مبالغ فيها، يريد أن يترك له الكلمة. إنه يقطب حاجبيه الكثيفين، وشرارات متوحشة تتطاير في عينيه، وفي أنفاسه مجاهرة. تقدم تجاه خديجة متخطيا مكتبه، وبا إبراهيم يشاهد مشاهدة العاجز المستوعب كامل الاستيعاب أن حقه في النطق بأبسط العبارات التضامنية قد جُرد منه مسبقا. كان يعلم حق العلم أن تأنيبا قادمًا لابنته لن يكف عن نبش جروح أخرى إلى جانب الجروح القديمة، بل قد يمتد لشيء في الداخل، كم هو عزيز عليها، يدها عادة بالقوة فيما تحتاجه للمواجهة، فيحطمه في منأى عن الآخرين.

-أهلا وسهلا بالسيدة خديجة! كيف حالك، حال عائلتك، حال الحي؟ سؤال واحد، هو فقط سؤال واحد: كيف كان حالك وأنت تحملين الحقيبة وتهربين؟ ما إحساسك وأنت تستنشقين الهواء ومعك ذاك المعتقد أن الحقيبة بها مال كثير وفرصة كبيرة نحو تغيير حياتك؟ مثلا... (يومئ برأسه، ويخطف نظرة ملؤها اللؤم) اشرح لنا شعورك وأنت تمسكين بحقيبة وحيدة دون صاحبها، بها مال كثير؟ خاصة شعورك وأنت تكتشفين أن حشوها مجرد ملفات بأوراق بيضاء لا غير... تكلمي، تكلمي...

أخذ يضحك ضحكة ماكرة التقدير بغير رحمة، وقد تحول السؤال الواحد لأسئلة كثيرة. كان يكلمها بعبارات غير مفهومة وتُهم لم تستسغها أو تفهم المعنى منها، بل بقيت صامتة تنظر تارة لبا إبراهيم وتارة أخرى للمسؤول الإداري، وتبتسم ابتسامة مخدوع اكتشف لتوه أنه خدع

بعد الكثير من الغباء الذي رافقه طيلة عملية الخداع التي تعرض لها. عاد هذه المرة بلهجة واضحة، لم يرغب عنها أسلوبه اللاذع، وقد ازدادت حرارة جسمه من الحماس:

-الآن، ستقولين لنا كيف فعلت الأمر؟ كيف أقدمت على فعلك هذا؟ وكيف طاوعتك نفسك للرجوع بعد الذي فعلته، بعد أن علمت أن الحقيبة ليس بها مال؟ أنا أعذرك، فالواقع الذي تعيشين فيه صعب، وحقيبة ممتلئة بالمال كم كانت ستغير حياتك، ولو بأسبوع جميل... هو شيء مفر لا يقاوم، فلتسقط كل الأخلاق والقيم الاجتماعية، أليس كذلك يا آنسة؟

رأت خديجة أن التهم الموجة لها وجهت كذلك في حق وضعها الذي لا ذنب له سوى أنه بضعة أيام صعبة، وضعّ تفرضه الحياة على الإنسان، حتى يكون وقعه ثقيلًا في سبيل واقع أفضل، كما رأت أن خوفها وقلقها السابق لم يكن مجرد توهّمات، وإما حقيقة استباقية تجول في مخيلة المرء، مُكساة بضباب أبعد من أن يكون شفافًا، ولو كانت المسافة الفاصلة قريبة، حتى لا تتضح لك الرؤية كاملة، فيقوم عقلك باستكمال ما كان الضباب يغطيه. وبالنسبة لها هنا، ما كان مغطى بالضباب ولم تستطع رؤيته هو اتهامها بالسرقَة، فاستبدلته بالخوف من ترك عملها، هذا الذي يقع مع كل إنسان، فشيء من إحساسك الاستباقي للأمر يكون حقيقيا.

ساورتها أفكار وتخيلات عديدة عجزت عن تتبعها وتفحصها، بل ولم تملك أيضا الوقت الكافي للتفكير بما ساورها بقدر ما كانت تلح على نفسها بضرورة التصرف السريع حِيال ما هي فيه.

تكلّمت أخيرا، وقد بدأت عيناها تمثّلان دمعًا، وبصوت ضعيف مرتجف كاد يتحول لتأتأة لفظت:

-سيدي! أنا... لا يمكن أن أفعل هذا... مستحيل... مستحيل أن...
أنتم تجهلون حقيقة الأمر.

نظرت لحظتها إلى با إبراهيم، وهي تتحسس كيف قد يكون شعوره مع ما يقع لها أمام ناظريه؟ كيف الأمر بالنسبة له الآن؟ ذاك الشعور الذي يسري بك حين ترى قريبا لك، عزيزا عليك يعنف أو يتلقى أقسى العبارات السيئة، في مشهد يظهره ضعيفا، لاحول ولا قوة له.

اختفى صوتها ووضعت يديها على وجهها الغارق في سيل من الحزن، ينذر أن سماء العيون، بل سماء الصباح المشرقة، قريبة من إسقاط خيط من الدموع، كأى امرأة تحس في لحظة ضعف منها، أن تغطية وجهها بيديها الناعمتين، ينتشلها من نظرات الغير في مشاهد ضعف كهذه. ومن منا يريد أن يظهر ضعيفا، ولو لدقيقة واحدة في حياته.

وسط هذا الجو المشحون المختلط بمختلف مشاعر الحاضرين، وتراشقهم بالمعلن والخفي، دخل المحامي فؤاد، وقد دهش لرؤيته خديجة واقفة، في وضعية تنم عن ضعف وقهر فيما قد تكون سمعته من اتهامات، بدا له مشهد وقوفها في الوسط هكذا، والمدير أمامها يستنطقها، منظر محاكمة، فترأت له مجددا كمحاكمة مألوفة، كانت قد حدثت في وقت سابق يعدّه من الماضي البعيد.

إن ترديد خديجة لكلمات «ليس ذاك! ليس ذاك سيدي!» أشعره بشيء من التأنيب يشق رأسه كفأس ينغرس بسهولة في العظم الجداري للجمجمة، فالأمر لم يكن يقتضي كل هذه الأجواء وما يصاحبها من نكال وعذاب قد يسببه للبعض. رأى في بادئ الأمر لو أن خديجة حقا سرقته الحقيقية بأي دافع كان، فإنها لن تترد بالصراخ، وهي تعترف بالأمر مستحضرة كل بؤسها ومعاناتها، فيتسنى للحضور العطف عنها. وللذي يقول إن الإنسان ينكر حتى يحفظ ماء وجهه، فإن ماء الوجه هذا تلوث منذ أزل، منذ رضي المرء بواقعه المر، واستسلم لليوم دون مقاومة روحية في الخيال على الأقل.

قال في داخله لحظتها:

-خديجة تقول الحقيقة، فأى سيدة هذه التي تعود بعد كل ما

تعرضت له من معاناة، تُستقبل بمعاناة أخرى ملؤها الاتهامات، تنغرس في خاطر المرء كسكين مدهون بسم ظاهر للعيان. إنها في حالها هذا قد تفضل الاختفاء، وقد تفضل السجن على الاعتذار، فأن لا تنظر، أن لا تنظر في أعين من آذتهم مهما كانت العقوبة، أفضل لها من اعتذار يبدأ بنظرات، وكلمات لا يرغب حتى الطفل غير المكتمل للإدراك من سماعها. إنها لا تكذب...! لم تكن تكذب قَطُّ!

أخذ يبرئها دون اطلاع على الحقيقة كاطلاعنا نحن القراء وعلمنا بماهية الأمر، ربما هي روحه النقية الهادئة التي تمكنت من سماع الأصوات الصافية النقية تخاطبها، إن من مثل خديجة ومن فرط ما قاساه وجف حلقه من الصراخ نحو معتقد «ظلم الحياة»، يحس أن له دَيْن للحياة يجري ليل نهار لتسديده حتى يتحرر من عبودية الماضي المعذب، فكيف له أن يزيد دَيْنه الحالي؟

-ها قد جاء الأستاذ فؤاد!

كذلك قال المدير يخاطب المحامي فؤاد وهو غارق في حديث داخلي، لو تمعنّت في صمته لوجدته في الحقيقة مشاركة في النقاش، لكن بشكل أحادي صامت.

استدار الكل في اللحظة التي اقترب فيها المحامي من مركز النقاش، يرمقونه بنظرات فضولية، كانوا ينتظرون ردة فعله جراء الموقف، كما استدارت خديجة هي الأخرى تنظر له نظرة يأس وكأنها متهم يطلب العفو والرحمة قبالة إعلان القاضي لحكم معروف مسبقا، وإن ألقيت عليه نظرة أنت كذلك عزيزي القارئ، قد تلقي نظرة شفقة وتأسف لما وقع تغزو ملامحه وأحاسيسه، فقد فهم ما لم يفهمه أحد آخر. ليس الكل مخولا لهم رؤية الخفاء وسط جسد مكسو بعظام ولحم. أردف المدير يكمل:

-إنها الأنسة خديجة يا أستاذ! قد أتت لنا وبكل وقاحة، تستعرض لنا عملها الرائع. أتعلم ماذا قالت؟ قالت يا سيدي أنها رأتك تركب

القطار ناسيا حقيبتك بجانب مقعد الانتظار، فما كان منها إلا أن التقطتها وأخذت تبحث عنك بين الركاب، تبحث عنك! فلما لمحتك وأنت في القطار تتقدم بحثا عن مكان تجلس فيه ركبت القطار وأ...
قاطع المحامي يكمل ما كان يقوله:

-وأخذت تتبني محاولة الوصول لي قبل أن ينطلق القطار، لكنها

لم...

قاطعته هو الآخر خديجة تكمل وكأنها تتوسل في آخر بارقة أمل

لمحتها:

-لكني بحث عنك يا سيدي حتى فقدتُ أثرك والأمل معه في خطوة آمنت بها، ومخافة أن ينطلق القطار بي قررت الهبوط فوراً، لكن كان القطار قد انطلق...

وهنا اشتد نحيبها قاطعا عليها الكلام، فبرى قلب المحامي لمرآها،

وأكمل يقول:

-أنا لحظتها كنت قد نزلت من القطار، تذكرت أني وفي لحظة شرود نسيت حقيبتني، فعدت للبحث عنها على أمل استردادها، لكن بلا جدوى...

لبت الجميع ينصت لهذا التناوب الفجائي في سرد الواقعة، والمدير أحس أنه يلتمس إعفاء من كلام المحامي. خيل له حينها أنه يفقد السيطرة على استنطاقاته نحو إظهار الحقيقة، ثم عاد يرد بحزم، ما زال هو نفسه لا يدري الدافع المستمر لتصرفه العنيد هذا، وقد انجر للتلذذ في تهمه الخانقة للعاملة المسكينة:

-دعك الآن من هذا ولتعتري بسرقتك حتى نتخذ الإجراءات التأديبية اللازمة في حقك، ولك كامل الحق يا أستاذ في متابعتها قانونياً، الأمر راجع لك.

عاد ينظر لخديجة مجدداً في قسوة كاملة الأركان، ويتابع كلامه:

-بداية من اليوم لا عمل لك هنا، بل بداية من الآن، كما لا تعويض

لك، فليكن في علمك، ماذا أقول أنا؟ بل اشكري الله أننا لن نزع بك في السجن...

أظهر المحامي فؤاد بسرعة -بداية من انتهاء كلام المدير إلى نظرتة الثانية نحو خديجة- أسلوبه العفوي في التعامل مع آخره الموقف. وسارع يقول:

-لا! لا! ليس إلى تلك الدرجة سيدي المدير، ثم أي جرم هذا الذي حدث حتى نستدعي الشرطة؟ كما أن الأمر من بدايته هو خطي، والمسكينة لم ترد إلا مساعدتي. أرجوكم (يضم يديه ويرفعهما نحو الكل) لم يحدث شيء، أرجو تلافي الأمر، وأكملوا يومكم بهناء... رجاء أيها السادة. سعى جاهدا بكل ما يملك من كلام وحركات تعبيرية لتفسير وجهة نظره من النازلة، وطمأنة خديجة والحاضرين المشفقين عليها، ولكن إحساسه بالذنب أدى إلى أنين في صدره جدد له الرغبة في إعادة محاولة ثانية وثالثة.

وفي هذه اللحظة وبينما كانت المشاعر تتباين والقلوب تنفطر والدموع تنسكب والحزن يغتنم، سقط با إبراهيم أرضا، سقطت جثا فيها أولا على ركبتيه ويده اليمنى مبسوطة تلاصق مسكن القلب، أعقبها سقوط كامل على البطن ثم قلب على الظهر، هناك فقد وعيه كاملا، لم يعد يصدر أي حركة. لقد سقط أمام أعين الحاضرين في مرأى منهم، واقعة فاجأت الجميع، تركتهم صامتين، يحدق بعضهم ببعض، وكأنهم ينتظرون هذا الذي سيلتقطه من الأرض، ويتفحص سقوطه وأسبابه.

كان هذا الشخص العامل جواد، أقرب شخص له، تبعته خديجة تصرخ صراخا يتصاعد نواحه... لم يعجب البعض، كل له أسبابه، لكن السبب الواضح أنه صراخ يبعث في الأذن نغمة جد قاسية، ينفر منه الإنسان، وإنكم لتعلمون شدة صراخ نساء مجتمعنا وقت الكوارث.

تموضعت خديجة بشكل يمكنها من ضمه جيدا، حتى يكون وقع الحادث على القلب أثقل، فيظهر ما بالداخل. إنكم تتساءلون لم ابتلع

المدير صوته؟ لقد سكت لبرهة، دون أن يفكر في إصدار أي صوت أو حركة أو فعل أي شيء كمدير، ربما أحس لحظتها وفي اعتقاد منه، أنه ما كان يجب على الرجل أن يسقط ويجعل خاتمة الأمر هكذا، ربما ظن أن له نهاية أحسن كان يمني النفس بعيشها، وجوهر الاعتقاد أن السقوط عنده شأنه شأن الكلام، يحتاج إذنا منه.

إلى ذلك فقد أخذ يسير نحو با إبراهيم، وما حمله على الإسراع في ردة فعل إيجابية إلا كلام المحامي فؤاد، كان يحثه بأعلى صوت أن يخرج هاتفه فيتصل بسيارة الإسعاف على الحال، قلبى النداء مرعوبا من الأمر مفزوعا منه، لقد تحول إلى طفل تُملى عليه الأوامر فيسمع ويستجيب. انفطر قلب خديجة مجددا بواقعة أقسى من تلك التهم الموجة لها. رأت أنها المذنب الوحيد فيما حدث لها إبراهيم، تبكي وتعود لتبكي أقوى من السابق، حتى أن بعض العمال بدأوا يحضرون لمشاهدة ما حصل. صار المدير يحاول تدارك الأمر أخيرا، يوجه الأوامر في كل الاتجاهات، مما أظهر اضطرابا في قراراته. أما المحامي فؤاد، فلم ينحن تجاه با إبراهيم يتفقد أمره، بل ظل واقفا ينظر بأسى لما حدث، متأثرا في صمت، حزين النظر. نظّر إلى خديجة بكل إحساس وشفقة، لعله يعبر لنفسه عن أساه، نفس بدت كأنها تكره كل مشهد محزن، بل تعتبره ملقاطا يتحين الفرصة لإظهار حزن كل أحد منا، يلتقطه من أعماقنا ليذكرنا به؛ دون رحمة حقيقية.

كانت خديجة، وفي نظر كل المراقبين للوضع، تتألم ألما رهيبا. كان واضحا حتى للأغبياء أنه ألم لا يخص الحاضر فقط، بل هناك استحضار لكل لحظة قاسية عاشتها، حتى قال بعضهم في صورة تضامنية وهو يغادر المجمع هاربا خوفا من أن يفتح لديه جرح قديم: يا أسفاه عليك يا أختاه! يا أسفاه...

حضرت سيارة الإسعاف مع طاقمها المختص، المختلط بين شباب وخبرة تؤدي وظيفتها كالمعتاد، تضع في جو حزين لا يعد بالخير بناتا

با إبراهيم بداخلها المجهز بأجهزة تنفس وقياس وإسعافات أولية ترمي إسعاف المريض في انتظار الخضوع للتدخلات الطبية في المشفى من عمليات، وإلى ما ذلك.

خديجة كانت أول المنضمين له وهو ينقل على سيارة الإسعاف. تستمر في لوم نفسها بشتى العبارات. هناك من كان يراقب سيارة الإسعاف، وهي تختفي بين الشوارع مع صوتها المخيف غير المريح (وكم أربنا ونحن صغار)، وهذا المحامي فؤاد، يتأسف على الذي وقع ويتعهد لنفسه بزيارة با إبراهيم والاطمئنان على صحته التي لم تطمئن أحدا، إذ كانت منهارة وسط كومة من الكلام المرهق... كما لم تغب خديجة عن باله، فراح يتقدم بحثا عن سيارة أجرة صغيرة، وهو يدعو الرب أن يكون بجانبهما في أقرب فرصة.

بخصوص السيد المدير، فقد كان يتابع الموقف وهو يتلفت حوله، أخذته بعض الأثنية، فقد راح يفكر كيف هو إحساس المسافرين بعد رؤيتهم لموقف اليوم؟ كيف ستكون مكانته بعد هذا وهو الذي جاء برغبة كاملة تعتزم إدارة فترته للمحطة بشكل خال من الأخطاء والمشاكل؟ لكنه يعود للدعاء لبأ إبراهيم في خلسة بالغة الرزانة والاحترام بعد أن عاد لمكتبه، أما تجاه خديجة، فلم يلن قلبه بالمرّة، إذ قال في حقها مدمدما:

-يا لك من امرأة! حتى بأ إبراهيم لم يسلم من كوارثها... أرايت يا بأ إبراهيم، كيف هي تلك التي تدعوها بابنتك ماذا جنته عليك؟ آه!
آه! يا بأ إبراهيم...

شيء من الماضي

ما دام الأمر برمته أطفأ بريق الأمل في حياة خديجة، وأعادها مدينة للحياة بكمّ كبير من الأحزان والهموم، فكيف السبيل لسداد هذا الدَّين نحو حياة أفضل؟ بل لقد أكلها الاستسلام منذ تلك اللحظة التي وقفت وهي تتلقى الاتهامات، كسوسة بدأت تنخر الأمل حيث وجد، كسوسة لا لون لها، ولا صوت لها سوى نواح طويل يطلب وبكل استعطاف: كفى... كفى...

الساعة الواحدة ظهرا، يوم جديد، نفس جديد، لكن أحداث البارحة ما زالت صامدة في النفوس، لا تنفك ترحل كمحتل. ودعوني أخبركم ما فاتكم البارحة، حين انصرف الكل إلى سبيل حاله في انتظار الغد.

لقد كان المحامي فؤاد يتربقب الغد، وفي نيته الذهاب إلى زيارة با إبراهيم، ومقابلة خديجة. يبحث منذ ليلة البارحة عن كلمات يخفف بها من قساوة الأمر عليه، حتى أنه راح يفكر بحل في سبيل أمل يكون شمس الغد الدافئ. إذ لم ينم ليلتها حتى ساعة متأخرة و فقط تحت إصرار زوجته عليه بالنوم.

صار لا يفارق شرفة منزله، يراقب الآتي والراجل، يستنجد بفكره القانوني علّه يجد شيئا يستطيع تقديمه لتلك السيدة التي قاست بسبب هفوة ذاكرة منه.

بدأ يتذكر ليلتها بعض الأحداث. لم ينس المشهد المألوف له. محاكمة تذكرها لا تخص مهنته بل طفولته. حكى ما جرى في تلك الذكرى السيئة، وكأنه يحكي لأحدهم، إذ يأتيك وقت تحكي فيه لنفسك عن أشياء تؤمن

أنك ستحكيتها للغير عما قريب، كأنه تدريب لهذا الحكي القريب، ففي داخلنا ميدان تدريب نفسي، هذا الذي وقع له، فتحدث قائلاً:

«آه! آه! أما لهذا الحدث أن ينجرف بعيداً عن بالي...؟ كم عرفتني المواقف القاسية صامداً، لم يثنني لا يأس ولا هم، لكنني وعند تذكره، أتذكره بألم أكبر ولا يسعني سوى مواساة نفسي. كيف لي أن أنصرف وحدي إلى الغد دون هذا الحدث القاسي...»

أتذكر ذلك اليوم وكأنه البارحة، حين وقفت مع الحضور أتأملهم يقتادون أبي... يا لأبي المسكين! ما كان ذنبك؟ سؤال لو كان في وسعي توجيهه للقاضي الذي بدا لحظتها أنه متلهف لإنهاء الجلسة، ربما يسرع لأجل تلبية طلب زوجته في إحضار غرض ما للبيت، في نزهة كان قد وعد بها بوقت جد قصير رأى أنه يوشك إخلافه. ألم يسعني فعل شيء سوى التفكير في هذا السؤال؟ أنا نفسي كنت أشبه القاضي، بل حتى أننا متشابهان في وعدنا، أي طفل بعمرى الذي لا يتجاوز الرابعة عشرة يعطي وعداً تعلم أنت سامعه الذي مررت تسرق هاتف السيدة وتصيح بضحكك الماكرة المنتصرة على ضعف امرأة أنه وعد أطفال حاملين. وأنا لا أنكر أني طفل، أوليس لي حق في هذا.

شاهدت أبي يصارع رجال السلطة بيد ويشير لي بالأخرى ارحل، ارحل... كان يعلم أن القادم لا يناسبني كابن وطفل، أراد أن تبقى صورته التي عهدته عليها ترافقني وأنا أنام في زاوية البهو أنهو للجميع أنها مكاني، وأن الأمر لن يعجب كل متطفل متجرب على الجلوس بها، إنها حياة الطفولة!

انتظر حتى تعلم الأمر! أتعلم أمراً، إن أكثر ما أثار الحقد في نفسي الطفولية والمتحيزة أكثر لوالدي- ولأبي والدين مهما بلغاه من سوء- هي تلك الصفعة التي وجهها شرطي لأبي. لقد صرف كل ما لديه في عربة السمك تلك، لكنهم وبكل أنانية مجردة من أدنى قيم التضامن والاحترام سلبوه العربة، كان ذلك بالنسبة له أشد مرارة من الصفعة، وأنا كنت

متأكدا أن الصفحة لحظتها لم تزر ذهنه المشغول برؤية مصدر رزقه يؤخذ، فيتلقاه بغضب وكره. لكن لنكن صريحين، حين يكون الإنسان على مقربة من خسارة الشيء، فإنه سيطالك منه سخط وحققد، ولو ترجيته أن الأمور ستعود لما كانت عليه، لن يهدأ له بال حتى يفتك بك كما يفتك الأسد بمن هم أمامه، فيترك بقاياهم لأضعف مجاوريههم. لا عليك، أنا لا أدري الدافع لهذا. أجد راحة غريبة في سرد الأمر، وأنا أعلم علما يقينا بنهاية الأمر، لا جديد سيكون... لقد تم اقتياد أبي في سيارة كنت أخاف منها كثيرا في صغري كسائر أقراني، وقد زاد خوفي لحظتها أكثر، انبثق الخوف من داخلي وكأني لأول مرة أعرفه. قال لي بعضهم على وجه السرعة «اذهب! اذهب بسرعة وأخبر أمك، إنهم يأخذونه!» ركضت وقد أرعبني الذي حصل، كأني هربت! خيل لي أنني أهرب منهم وكان دوري قادم. تمنيت لحظتها أن أصير أحد أبطال مسلسلاتي الكرتونية كي أخبر أمي سريعا... لكن لماذا لم أفكر وأنا على هيئة أحد أبطال مسلسلاتي الكرتونية في إنقاذ أبي الذي ودعته والجو حزين؟

لم أره منذ تلك اللحظة إلى أن جاء وقت المحاكمة، كان نفس الرجل، لم يتغير بين أحضان السجن، وكلمات القاضي ما كانت إلا تأخير لوقت لم نحس يوما أنه كان لنا. شهدت أبي المسكين اللطيف يترنح في مكانه، نظراته كانت تقول: هلا رجاء أنه يتم هذه المسرحية، أعرف سلفا أنني سجين لا محالة.

كان أقسى مشهد في الأمر أن يستدير أبونا -نعم كان أبي أبا لي ولأمي معا- أن يستدير وهو مبتسم منهزم انهزام الأبطال. لم أقابل المشهد بكامل وعيي، إلا أنني تذكرت وعدي حين قلت له أنني سأصير وزيرا! لأنه كان في نظري سقف السلطة، أنتشل أمثالنا من قاع المعاناة، وأنتشل القاضي وأمثاله من غياهب الضياع عن الحق. كانت زلة يوم حامل، تحمست فيه أقصى حماس، ومن فرط ما آمنت به، صرت أدعو بيدي الصغيرتين

النحيلتين كلما أطفأت أومي الضوء استعدادا للنوم... يا للأيام القاسية، بل يا للإنسان القاسي. أتدري ما الذي حل بأبي المسكين؟ مات! قد مات الرجل حزنا. أعدمته التفكير من جراء ما أحس به من ظلم، ونفذ الحزن فيه حكمَ الإعدام بتواطؤ مع جسده المنهك... وها أنا الآن حلبة صراع، بين ماض وحاضر، يدفعني كل هذا إلى أن أحرم نفسي في بعض الليالي من نوم هنيء أتلقى به أفضل الرضى عن جسدي...».

إن وفاة والده وبتلك الطريقة، تركه معلقا في ذاك الحدث، لا يلبث ينسى فتذكره الأيام دون مبالاة، مشهد من الحاضر كفيلا بأن يعيدك سنوات إلى الوراء، كانوا يقولون إن العودة بالزمن إلى الوراء ضرب من الخيال، وها هم كثر يمارسون الأمر يوميا متنقلين بين ماضيهم وحاضرهم...

كان يستنجد بالليل الهادئ في شرفته، عله ينسى، حتى أنه كان يتناول بعض الأدوية طمعا في النسيان، وها هو في هذه الليلة قد أخذ كأس ماء وانفرد في عزلة يشرب أدويته ويكلم الخاطر كلما اشتد الصمت حوله، فلا يجد إلا تلك الأنفاس التي بلغ مداها التنهد، فيحس بقرارة حاله، وإلى كم غاص بداخله.

استمر في الأمر يستلطف جو العزلة، يناقش حاله المضطرب، يفكر في خداعه، هل كل شيء بخير؟ وهو منفذ الأمر لما يتحسسسه. أخذ يفرك عينيه من شعوره بالنوم، وبدأ جانبه الواعي ينسحب، رأى أنه الوقت المناسب للنوم، فما إن أخذ يضع كأس الماء الفارغ، ويبعد الغطاء ليأخذ له حيزا في سريريه، حتى كلمته زوجته من تحت الغطاء، وهي تكشف عن وجهها بلهجة حازمة متماسكة:

-ألم تنم للآن؟ يا رجل إن الفجر قريب من الأذان.

-حسنا! حسنا! كدت أنام للتو، لماذا أيقظتني؟

-أيقظتك؟ لماذا تتكتم عن مشاعرك الآن؟ أهنئك هذا شيئا من

الأمان؟

بدت غاضبة تكاد تستعيد يقظتها كاملة وهي تواصل:
-دائماً أنت هكذا، كتوم! ألسنت زوجتك؟ ألا حصه لي من مشاعرك
الأليمة؟ أنا أعلم أنك تمنح عائلتك كل مشاعر الحب والود، لكنك تدري
كم أنت كتوم في ألمك. أليس في الجناز تجمعات لتقاسم الحزن والتلفظ
بشتى عبارات التضامن؟ أه! يا فؤاد، ماذا يمكنني القول... (الله اهديك
وخلص!)

أكمل استعداداته للنوم، يحاول تهدئة الجو قائلاً:

-نامي، ليس هناك شيء يستحق...
-يستحق ماذا؟ أنا بالضبط أحاول تفسير هذه الكلمة «يستحق»،
تراك ماذا تقصد؟ أووف! إنك تغيظني... من الأفضل أن أنام...
-تذكرت الماضي مجدداً، وتذكرت أبي. عدت مطارداً من أسفي على
ما مر، ومن حسرة تحاسبني وأنا الذي ما كنت إلا طفلاً أقصى ما يمكنه
فعله هو البكاء. أرجوك اخلدي للنوم، الأطفال قد يستيقظون، هيا...!
أنا أكن لك حبا جما، فلا أريد لهذا الحب أن يتلطح بجانب أسود من
ماضي... يكفي ما أراه من حزن لدى أمي وقد تجرعت داخلها مرارة
من فرط ما استسلمت وعند تلقيها نبأ وفاته... لم يكن أمامها إلا أنا،
فتعانقنا كأعزلين أمامهما مجموعة من المسلحين. كنت قد وعدت نفسي
ألا أعانقها لأي شيء حتى تكون يدي وفمي وكل ما لي قد تجند لإسعادها
بخبر مفرح...

-ما لك سكت يا رجل؟

كان في الحقيقة حواراه الأخير داخلها لا إجابة لزوجته.
أجابها هذه المرة ببرودة متناهية الأجل وكأنه يدعوها لإنهاء
الحديث:

-إنه المشكل نفسه. لا عليك، يزول غداً، فقط نامي... سأنام الآن.
ثم التفت للجهة الأخرى بحركة سريعة، مغطياً رأسه. عادةً دأب
عليها منذ الصغر، إذ لا يستطيع النوم دون أن يغطي رأسه.

لم يترك لها حق الرد، حتى أن المرأة استسلمت من شدة تكتم الرجل على أحزانه التي نادرا ما تخلع رداء الكتمان، ليس كاستسلام صاحبها، وإنما إبرام مصالحة مع المصير. كان قد أغمض عينيه يتعهد نفسه بالنوم حالا، لكنه لا يتخلص من إصرار خفي أسال لعبه على حديث شائق سيدار هذه المرة داخليا لو قبل، وهذا الذي حدث. عاد يقول خفية، يستكمل حوارا كان منذ قليل:

-آه! كم هو صعب على الإبن أن يرى أحد والديه يبكي- بحرقه أم بشكل عادي لا فرق- متأثرا في الكلام. عكس الأب الذي إذا رأى ابنه يبكي، يصمت، ويقول بداخله: «ربما في مصلحتك، فأمامك الكثير لتتعلمه في الحياة»، لكن الإبن الذي يرى والده يبكي، وقد تقلص وجهه من شدة ما أبان عنه من ألم يقول: «ماذا بقي لك لتتعلم حتى تبكي هكذا...؟» لقد نام بعدها، نام بوضعية الجنين؛ هي وضعية نتخذها عندما نتألم لأمر ما، وكأننا ننسحب من الحياة، عائدين إلى ما قبل الولادة، إلى بطون أمهاتنا الدافئة الآمنة.

استيقظ بعد ليلة طويلة على صوت الأولاد يتسابقون نحو طاولة الفطور، والزوجة نالها التعب من فرط ما رتبهم وأعدتهم أشد عدة ليوم آخر من الدراسة. وفي لحظة تفقده الساعة، صاح صوت رقيق ضعيف ليس بغريب عنه، قام يتحقق هل هو الذي بباله، كان الصوت لأمه، أتت باكرا قبل أن يستيقظ الجميع، نستطيع القول أنها هي من أيقظتهم بدقائق عن موعد استيقاظهم المحدد.

صاح ينادي بفرح زائد كالطفل:

-أمي هنا وأنا آخر من يعلم! أهلا وسهلا بالدنيا.

قبل رأسها، ونظر نظرة خاطفة يتفحص ما على الطاولة من فطور. اعتقد اعتقاد الطفل أنه سيجد ما يبحث عنه، «المسمن»، كانت أكلته المفضلة التي لم يفطم بعد منها، ينعم بتذوقها فقط من يديها الذابلتين المنقطتين ببقع بنية صغيرة، من كثرة ما تمّ عليهما من عمر وهمّ.

قالت الأم:

-تفضل بجانبى، ها قد أعددت لك ما تحبه... (بالصحة والراحة

أولدي).

تتكلم زوجته مازحة:

-تذلل، تذلل... فقد حضرت أمك.

-ولم لا أتذلل بين يدي أمي... (الله يخليك ليا الوليدة).

قال هذا حتى كاد يرقص فرحا بلحظته وهو ينظر لأولاده وزوجته،

كأنه يقول لهم «انظروا! أنا الآن تحت رعاية أمي».

إني قد أكون غريبا مما قد أقوله، لكن يأتي على الأب لحظات يشعر

فيها بالغيرة من أولاده وهم يتذللون في حضن أمهم، إنما هو يشناق،

يشناق إلى هكذا مشاهد مع أمه.

خرج المحامي فؤاد من منزله، وقد أزال شوقا حثه على زيارة

أمه، فهو لم يزرها البارحة بسبب ما وقع له، بالأحرى كان هذا سبب

زيارتها الصباحية، هذا قلب الأم، انشغل بالها من غيابه، حتى أنها

رفضت فكرة الهاتف، أرادت أن تطمئن شخصا. يمكننا القول أيضا أن

خاطره المعكر صفا، كذلك بطنه شبعت، أحيطكم علما أنه ورغم حبه

الشديد ل«المسمن» إلا أنه كان لا يأكل إلا واحدة ونصفا وقد تصل أحيانا

إلى اثنتين، لا يزيد عليهما، وكانت دائما ما تمازحه أمه قائلة: «كلّ هذه

الجلبة وفي الأخير غير قادر على إكمال اثنتين...»، حتى لقد نسي أمر

خديجة وما كان وعد نفسه البارحة. أخذ الوقت إلى الطريق يحسب

خطواته حتى تذكر. توجه في بادئ الأمر لعمله الذي حصره في ساعتين،

فمن عاداته وعند الخروج من المنزل أن يستذكر برنامج اليومى، لكنه

يسطرّ على الحدث الرئيسي في جدولته، وهذه المرة عنونه ب: خديجة.

على سيرة خديجة المسكينة التي لم تبرح مكانها في المشفى منذ

البارحة، فإنها لم تكف عن لوم نفسها المرهقة الحاملة لما لا تطيق،

دعت في وقت متأخر أن تعفى من تفكير خانق، وتلجأ لأرض النائمين،

كانت حقا بحاجة شديدة للنوم. ظلت ليلتها وحتى صباح اليوم الموالي تتذكر ما وقع في أسى ومعاناة معذبة، هذا لم يمنعها من تحليل الأمر واستدعاء كل حواسها ومكونات فكرها تطلب شرحا مفصلا، فالأمر لا يعينها الآن وحدها حتى لا تتجراً على نفسها، وقضى دون معرفة الواقع.

إنها الساعة الواحدة ظهرا. اتجه نحو المحطة بأكمل استعداد لهذه اللحظة، بعد أن أنهى جلسة مهمة في المحكمة بقدر أهمية ما كان في الحقيقة، بل إنهما الشيء نفسه، ما كان في الحقيقة شيء هام يخص الجلسة. إننا وبالحديث عن هذه الجلسة، قد نكون نتحدث عن سيدة أخرى لا تختلف عن خديجة. إذن فلنتحدث عن شيء من هذه الجلسة حتى نعرف أكثر:

كانت تمشي منتشية بانتصار عظيم، إنها أم تحارب من أجل حضانة ابنها، والمحامي فؤاد يرافقها خارج قاعة الجلسة، يتحدثان عن انتصارهما الآتي، تخبره أن صنيعه لن ينسى مدى الحياة، كما لن يجزى بأي جزاء مهما بلغ وزنه، وراحت تنهال عليه شكرا أخويا، تمدح أسلوبه وفطنة تعبيره الجميل: أشكرك يا أخي فؤاد على مجهودك، كنت رائعا حين...
«-سيدي الرئيس، حضرات السادة المستشارين، طبعا نعلم كم أن بعض الآباء يكونون أقرب للأبناء من أمهاتهم، وها أنا أب أمامكم لي ابنان كم أحبهما، لكن أن يأتي هذا الأب طلبا في الحضانة بعد أربع سنوات من تركه لطليقتة تحارب في الحياة دون معيل، بوضع مادي مزر، فإننا نصطدم أمام سؤال واحد، بعد إذن حضراتكم سأوجهه للأب:
دفاع الأب:

-أعرض يا سيدي على توجيه أسئلة لموكلي.

القاضي:

-اعتراض مرفوض.

المحامي رشيد يسأل:

-شكرا سيدي الرئيس... إنه لسؤال بسيط لم يستدع من زميلي في المحاماة هذا الاعتراض. هو كالآتي: بعد أربع سنوات من فراق الزوجة والابن دون نفقة تعيّلهم، لم الآن وفي وقت كهذا، تصر على أخذ الحضانة من أمه؟

الأب صامت صمت المتفاجئ، ذهب باله إلى شيء آخر، فأحيانا ينجر تفكيرنا أبعد من المطلوب عند بعض الأسئلة، ربما حيطة فكرية، كأنه صوت خفي بداخلك ينبهك لاستعداد تتجهز به لكل قادم. ربما اعتقد اعتقادا تأهيبيا أن السؤال قد يطرح حول شيء سري يحتفظ به بعيدا عن علم أحد.

انقض المحامي فؤاد على صمت الأب مانحا نفسه حق الإجابة:

-أنا سأجيب، حسب قول موكلتي فإن سبب هذا الإصرار المفاجئ هو زواجها الحديث الذي لم ينقض عليه أسبوع واحد من رجل آخر. وأخيرا بعد أربع سنوات من الكفاح والمثابرة بأبسط الإمكانيات وجدت معيلا، وكما نعلم فالمادتين 175 و 176 من مدونة الأسرة تقول أن زواج الأم الحاضنة لا يسقط حضانتها، فالإبن ما زال في السنة السابعة من عمره، كما أنه لا يقوى على فراق أمه... ودعوني أنوه بشيء يخص هذا الزوج الجديد، إنه رجل عاقر لا يلد بعد تجربة زواجين، وقد رأى في خديجة وابنها الملاذ الأخير له، في نيته تربية ولدها كأنه من صلبه، يطمح لتكوين أسرة صغيرة... هذه شهادة طبية تثبت ما جاء على لساني (يقدم الشهادة الطبية للقاضي، ويعود لمكانه). وماذا فعل الأب؟ نكايه في هذا راح يطلب حضانة الإبن لا غير.

قال دفاع الأب:

-سيدي الرئيس... إن الادعاء الذي جاء به زميلي أن زوج موكلته لا ينجب وسيعامل الأبناء معاملة أبناء من صلبه جميل، يدعونا لنعتز برجولته، لكن... (يغادر مكانه بضعة سنتمترات قليلة) دعوني أخبركم أن موكلي تزوج منذ ثلاث سنوات، منذ ثلاث سنوات، دون أن ينجب، وهنا

أنوه أن لموكلي الحق في ابنه أيضا، طمعا كأبي أب أن يعوضه عن وضعه الأسري هذا.

تدخل المحامي فؤاد للرد، وطلب أن يوجه سؤالا آخر للأب، الذي اضطرب وتحرك فكره على غير انتظام كقارب ثار في وجهه الموج:

-سيدي الرئيس، علمت من مصادر موثوقة أن الأب قد بشر بخبر

مفرح، سيرزق بمولود من زوجته الحالية. هل ذلك صحيح سيدي؟
وجه سؤاله الأخير وهو يبتسم في وجه الأب، والقاضي أعاد توجيهه للأب وهو يذكره بعقوبة الكذب على المحكمة...

أجاب الأب متلعثما في الإجابة:

-ها...! لا! نعم!

القاضي بلهجة حازمة:

-كيف تقول: لا، نعم؟ أريد إجابة واضحة.

أجاب الأب هذه المرة بوضوح تام، معترفا أنه ينتظر ابنا من زوجته الحالية، ولم يمس على سماعه الخبر المفرح أكثر من أسبوعين، وأنتم تعلمون ماذا يحصل للأخبار المفرحة في عالم النساء، ستصل بكل تأكيد لآخر الدنيا...»

قرار بائت

لقد وصل للمحطة منذ وقت ليس بكثير بينما كنا نحن نتحدث عن شيء من هذه الجلسة. اتجه لمكتب المدير، ولقد استغرب أمرا، إنها المرة الأولى التي يأتي فيها لمحطة القطار، دون أن تكون نيته استقلال أحد قطاراتها صوب وجهة محددة. لبث في مكتب المدير ينتظر بضع دقائق، إذ لم يجده في مكتبه مع صوته المرتفع في سبيل تأديب كل مخالف لقوانينه. جعله هذا يعتقد بسخرية في داخله: «لربما يقوم بتأنيب أحدهم اللحظة في موقع ما».

لكن أحد الموظفين بالمحطة كسر تلك العزلة، قد دخل يرحب بالمحامي قائلا: إنه يجوب أروقة المحطة كإجراء روتيني... تفضل... أتشرب شيئا ما...؟

كأنه تلقى ردا على اعتقاده، إذ يحصل أحيانا أن نسأل ونجيب ونعتقد، كل هذا يحدث بداخلنا، لكننا نلقى ردا من الخارج، فقد كنا نحن السؤال والجواب، وكل ما يصاحبهما، وذاك ضرب من عدالة الفكر. لم يتأخر المدير في الحضور، دخل مسرعا، باسطا يديه للسلام، يرحب بالمحامي فؤاد كترحيب صداقة تشهد ثاني لقاء لها، كما حين تأخذك راحة سلوكية تبيح لك جرأة زائدة في كل شيء. لقد كان يبتسم، لم يكن ذاك المدير الذي شهدناه البارحة، يبدو أنه تغير أو هكذا خيل للمحامي. فتجاوزك اللقاء الأول وما تم الإفصاح عنه آنذاك يجعلك تعتاد، فيصور لك أن الشخص بكل ما فيه ليس إلا شخصا عاديا كغيره من الناس، وهذا راجع لعدم ظهور شيء جديد فيه يفاجئك.

صار الاثنان يتحدثان عن البارحة، استذكرا ما حدث، وأخذ المدير يتحدث عن با إبراهيم بتعاطف وتقدير كبيرين قائلاً:
-إنه لرجل قوي! صامد متأهب للقادم في صورة شبابية... الحمد لله أنه عاد لمنزله... أتدري يا أستاذ، إنه قوي! لم يبق في المشفى لوقت طويل، كان يواصل القول وبعناد: (يلاه نمشيو الدار).
-الحمد لله أن الأمر لم تكن له آثار خطيرة.
كذلك عبر المحامي فؤاد، كارتياح أحس به لحظتها. وأردف يقول، وهو يرتب جلسته:

-حسنا، جتتك اليوم في أمر العاملة خديجة. أعلم أن ما وقع جعلك تغضب بشكل بدا ظاهرا من أسلوبك البارحة، إني أشفق على السيدة مما وقع لها، فما حدث قد حدث، كما أن الخطأ خطئي، نحن لا نريد حمل وزر أحدهم... الحقيقة يا سيدي لي طلب بسيط، وأرجو ألا ترفضه، إنه يخص عملها، فالمسكينة ولظروفها البائسة وما عاشته البارحة... سيكون جميلا أن تعيدها للعمل.

بدأ المدير يتلمس لحيته الخشنة، ويستكبر لا على المحامي، بل على اللحظة، حتى يقنع نفسه بأهمية موقفه وقراره، هكذا يحس من هم في شبه مع المدير.

أجاب بهدوء غير معتاد، يجدد نفسه:

-يمكنك الارتياح من هذه الناحية، يمكنها العودة واستكمال عملها، الحقيقة أي كنت أفكر في الأمر، سيكون هذا أيضا خبرا مفرحا لبا إبراهيم، نعم، سيفرح... الحقيقة يا أستاذ أي لا أملك مشكلة مع البنت...
قال جملته الأخيرة دون أن يكون مطالبا بقولها، أو أن يفسر تصرفه القاسي معها، فالملاحظ أن طبيعة الرجل هكذا، قائمة مع جميع العاملين، لكن إحساسه الداخلي لما ارتكبه من تعنيف مفرط في حقها جعله يتحدث عن الأمر ساعيا لإراحة نفسه من هذا الشعور.
تابع يقول:

-السيدة منذ أن أتت لم يصدر منها أبسط مشكل، منضبطة، حريصة على العمل الجاد، لكنك تدري أنه الواجب، الحق يقال... وهل تعلم يا أستاذ أنها مجازة في شعبة القانون؟ أتأسف على حال شبابنا اليوم، شهادات لا تزيد حاملها إلا رغبة في قتل روحه التي طاوعها حتى أمضت السنوات في سبيل أمر لا ترغبه، لكن هذه هي الحياة.

شدت كلمة «مجازة في القانون» انتباه المحامي، راح يوقف كل تركيزه، مطفئاً حواسه، يختلي بالكلمة سعياً منه لشيء أضمره سكوتاً. عاد يطلب من المدير أن يتصل بخديجة كي تحضر حالا، حتى يخبرها بالقرار الآتي، حتى يطالها هذه المرة في حضرتهم اعتذار منه، ولو كان متأخراً. كان المحامي عازماً مبتغياً للاعتذار، ربما يمضي في أيامه القادمة مرتاح البال. طلب الأمر وسعى له بكل ما أوتي من تضامن وإنسانية، وهو ما طاوعه فيه المدير متنازلاً قليلاً عن عهده الذاتي، وكأن المحامي ذكره بالجانب المشرق منا فاتخذ حدوده. ألا إن الإنسان مهما بلغ من قسوة فأقل ما يحتاجه ليظهر جانبه المشرق هو مجرد تذكير.

اتصل المدير بخديجة، كخطوة حسنة. تفاجأت المرأة وبشكل كبير، بل تركتها الدهشة من الأمر تصمت لبرهة بعد أن قالت: الوو! لكن الأمر انتهى بتبليتها للنداء على وجه السرعة بإلحاح منه أن تسرع قدر المستطاع. ربما اعتقادها أن الأمر لا يعدو أن يبلغ أخذ مستحقاتها هو ما ينتظرها، ومن فرط ما هي في أمس الحاجة لهذه المستحقات، فرت من نفسها الداعية لتتجنذ بكرامة كافية تقف بثبات أمام أي انحناء أمام كلماته.

كان الوقت يمر ببطء كأن به عطبا، هذا ما أحسه المحامي لرغبته الملحة في اللقاء كونت له انتظارا وترقبا هامين بداخله. وها هو ذا ينتظر واقفاً، يحدق إلى زجاج جديد المظهر، نظيف الطلعة، يبادل له نظرات الترقب، حتى دخلت خديجة تبلع صوتها، معلقة ابتسامتها إلى أجل آخر. انتظرت أن يخرج المدير من فمه ما قد يكون تبريراً لإحضارها إلى هنا، لكنها دهشت لوجود المحامي.

اضطرب تفكيرها وعمت سحابة التشاؤم في سمائها، تنتشر مغطية أكبر مساحة، ف رؤية مجلس يجمع طرفين رئيسيين فيما وقع لها البارحة سرّع لذهنها كمًا كبيرًا من الأفكار، تتواردها كل على حدة. فتارة تقول لنفسها: «أيمكن أن يكون اتهاما جديدا قادمًا؟» وتارة أخرى: «هل أتيا بي إلى هنا حتى يستدعيا الشرطة؟». لكن لا شيء من هذا سيكون، بل حتى تلك السحابة السوداء ستبتدد وتتحول ليوم مشمس يدعو النفس لنزهة مسائية.

دون مقدمات، وفي طرح سريع، تكلم المدير يقول:

-ناديتك اليوم لأمر يخصك، إنه بخصوص عملك... بعد الذي حدث البارحة، ومما شهدته، وبالوقوف عن كونك لم تفعلني ما اتهمت به، فإني قررت عودتك للعمل (تظهر علامات التعجب على خديجة)، لعله يستوجب عليك نسيان ما حدث البارحة كما نسيناه نحن، ودون نسيان شكر الأستاذ فؤاد، فالفضل يرجع له.

وحين تذكر أمرا آخر أسرع يقول:

-آه... حتى السيدة فتيحة - المشرفة على النظام-، لقد أصرت أن تعودني إلى العمل. إن المرأة تحبك كثيرا، لم أسلم هذا الصباح من لسانها القوي... أوه، أنتن معشر النساء! إنكن خطر على صلابة الرجل.

عم الصمت لبرهة، وتوالت مواقف التعجب بداخل خديجة، لكن هذه المرة تعجب لا يقلق. أما قرارها المرافق لها نستطيع القول أنه اتخذ منذ مدة، من يدري متى؟ ربما منذ حملت نفسها حاملة بصنيعها الشجاع إلى مكتب المدير، فاستقبلت باتهامات جارحة.

تأنت في الرد كجبانة تهاب الكلام في حضرتهم، لكنها تجاوزت هذا وتشجعت في كبرياء وترقّع لتقول:

-إني يا سيدي أشكرك، كذلك أنت يا سيدي -للمحامي- لك جزيل الشكر، لكنني لا أستطيع القبول بهذا... الحقيقة، وجدت عملا البارحة، يا سرعة الأمر! لكنها مشيئة الرب... صادفت رجلا في المشفى أشفق على

حالي كشفقتكم الكريمة هذه، وقال إنه لأستطيع بدء العمل منذ الغد. هذا كل الأمر. على أي، أكرر الشكر مجددا.

لم يستسخ المدير ما سمعت أذناه، بل استشاط داخله غضبا وسخطا مما قالت، «كيف لها أن ترفض كرمي؟ يا للوقاحة!» ردد بداخله هذه الجملة التي لا يبدو أن لها متسعا في الداخل، تنادي نفسه المتعالية أن يقوم من مكانه ويتلفظها جهرا. وفي الجانب الآخر كان المحامي هادئ الأنفاس، ربما اعتقد أن حدود كرمه تقف هنا، فعل اللازم، والقرار الأخير يعود لخديجة، أم تراه أضمر شيئا في نفسه؟

استأذنت خديجة بالانصراف، وانسحبت حرة دون أن يجف بئر عنادها فيما اختلقته من كذبة كبرياء. فقد رأت أن كرامتها فوق كل شيء. اعتبرت أن ما تعرضت له من اتهامات قاسية مرفوض كل الرفض، إنه لا يغتفر، لم يكن هناك داع لكل ما عاشته، يمكننا القول أنها نالت حصتها كافية من التعنيف والاتهام.

قام المحامي يلحقها على وجه السرعة، تعلق وجهه ابتسامة غريبة. لقد كان متيقظا لكل ما صدر عن خديجة، علم أنها كذبت بموضوع فرصة اشتغالها المفاجئة تلك، احتراماً لمبادئها المقدسة.

صاح يناديها بصوت خافت مؤدب أقصى الأدب:

-خديجة، لحظة...

-أستاذ!

خاطبت نفسها تقول: ما الذي يريد... (أش بغا عندي هذا ثاني؟)

هل لي ببعض من وقتك. ها؟

استدارت خديجة بشكل كلي كإعلان على قبولها التام، وأكمل هو يقول:

-كما تعلمين أي من سعى لعودتك للعمل... إني متأسف إن كنت

سببت لك بعض المشاكل، إنه غباء مني... أنت كنت الملامة في الموضوع،

لذا أتأسف مجددا على ما حصل... الحقيقة أردت تقديم خدمة صغيرة

للتكفير عن غلطتي الكبيرة لعلي أرحل في طمأنينة...

صمت لبرهة كأنه يلتقط أنفاسه ويرتب أفكاره، وأردف يقول وهو
يؤشر بإصبع الإبهام تجاه مكتب المدير:

... ما قتله منذ قليل، ذاك العذر، أعلم أنه كذبة مضللة لا غير. كلنا
اضطررنا لاستعمال هذه الكذبة في يوم ما للتملص من شيء وبأقل ضرر.
إني أعلم ما مررت به في حياتك، إنه با إبراهيم... على أي كيف حاله؟
سمعت أنه بخير... رجاء، سلمى عليه... لقد حكى عنك بحزن رهيب.
في الحقيقة من الجيد أنه تحدث والمدير كذلك، ذاك الرجل القاسي في
أعينكم حكى عنك بلطف.

-إني يا سيدي أكن لك كل الاحترام منذ رأيتك، وأكّنه لكلامك
اللبق ولمشاعرك الحساسة المتأهبة للتعاطف مع الغير بغرض المساعدة،
وقد بدا هذا واضحا ليلة أمس، لحظة اعترافك أن الخطأ خطؤك... إني
لأشكر كل الشكر. إن معاملتك هذه تستحق كل العرفان.

هكذا ردت خديجة، كانت صادقة الرد من فرط ما صار الجو نقياً
بمشاعرها.

أخرج المحامي فؤاد بطاقته المهنية، وقام يدها لها قائلاً:
-الأستاذ فؤاد ال... محامي بهيئة الدار البيضاء.

استغربت خديجة من خطوته التلقائية تلك، جعلها هذا لا تهتم
لمهنة الرجل، والتي لطالما تخبّطت في تخمينها وها قد ظهرت أخيراً، لقد
غاب ذاك الاهتمام الفضولي الذي عرفته أول لقاء.

تابع يقول:

-علمت يا خديجة أنك حاصلة على شهادة الإجازة في شعبة
القانون، وتعملين عملاً لا يليق بمستواك. أؤكد لك أن هذا ليس عيباً
البتة، لكن العيب هو أن تستسلمي، لا أعلم ما مررت به في الماضي حتى
أقول لك هل استسلمت أم لا، لكن ما سأقدمه لك الآن، لا أريدك أن
تظهري استسلاماً فيه، في الحقيقة، لا تتخلي عن فرصة كهذه. (تتسع عينا
خديجة من الاستغراب). إني أعرض عليك التدريب في مكنتي كمحامية،

تستعدين لأخذ الدفة من جديد في حياتك... الحقيقة أن هناك امتحان محاماة السنة القادمة، إنه لفرصة موالية، وبطبيعة الحال تدربك في مكتبي سيممكنك من الاستعداد بشكل ممتاز، وطبعاً سأكون معك خطوة خطوة، لا تقلقي يا أختي...

قاطعته بصوتها الضعيف الهش تقول:

-القانون! إنه لوقت طويل منذ أن أخذت كتاباً للقانون أنفحص محاوره، تستطيع القول منذ أن توقفت عن اجتياز مباريات التوظيف.
-إنه الوقت المناسب لتسعي نحو الأفضل... (يا لالة إلى منجحتيش ومجابهش الله غادي تكوني سكرتيرة تاغي. ها...؟)

ابتسمت خديجة تحديق بالأرض رضا -ما أجمل النساء في تلك اللحظات، حين يقابلنك بابتسامتهن الوازنة على القلب- وقد فاضت نفسها عشقا أخويا لنبالة هذا الرجل الذي كان كملك أرسل من السماء لأجلها، فما قدمه لها كان فرصة ذهبية نحو شيء لطالما أحبتة وطمته. القانون كان بالنسبة لها حياة ثانية. لطالما خيل لها وهي تقرأ أحد الفصول في المسطرة الجنائية أنها قاضية تنعت ب «القاضية الحديدية»، لكن شاء الله وما أراد فعل، فالتنظيف لم يكن لها قاتل الأحلام ولا حتى نظرات الغير، وإنما هو ذاك الجانب الذي تعب فيها من حمل الكتب والذهاب كل يوم للجامعة في سبيل مستقبل أفضل من الذي هي فيه، حطم روحها النضالية مقابل السعي لأجل لقمة خبز، إن هذا الجانب لا يعرف إلا الانتقاد والتأنيب، يحسسك أنك ارتكبت جرماً في حق نفسك، فينطلق ضميراً زائفاً يعذبك، ليس بذاك الضمير الذي يظهر عند الخطأ، وإنما ضمير الشيء الذي نحن بصدده إنجازاه، فنحن عند إقدامنا على شيء، فإننا نضع كل قوانا فيه بخلق ضمير خاص به، يقوم صاحباً كلما فشلنا في الأمر. إننا وسط كل هذا الأمر نقوم بتجزئنا أنفسنا في سبيل ما نقدم عليه من تخطيطات ومجهودات لأجل واقع أفضل، وإن جزئت الروح فانتظر ثورة قادمة.

ردت خديجة على عرضه وكل شيء يوحي أنها ستوافق بلا تردد من قوة هذه الفرصة:

-شكرا يا سيدي! أنا لا أعلم كيف أشكرك على كرمك المتهاطل هذا...

ابتسم ابتسامة الصانع الماهر للفرحة، الذي تحصل على الرضا اللازم علّه يصلح نفسه المتضررة، رضا لم ينعم به منذ مدة.
أردفت خديجة تقول:

-أنت تدري حالي البائسة هذه، وعرضك هذا منجاة لي، بكل صدق... لكن يا سيدي، إني وبكل وقاحة، أجل بوقاحة، سأرفض، كلا! كلا! ما كان علي قول هذه الكلمة، آه! أرجوك اعذرنى... كان يجب أن أقول هذا باحترام، أي لا أستطيع قبول عرضك. أكرر اعتذاري سيدي المحترم... ربما يجب أن أذهب، أجل، إنه وقت ذهابي. أرجوك اعذرنى مجددا.
قالت جملتها الأخيرة ضعيفة الصوت تائهة الفعل، وبعينها بلل.

تبددت الابتسامة من على وجه المحامي، تلاطمت أحاسيسه بعنف، وتسمر في مكانه دون أن ينبس ببنت شفة، دون أن يعود إلى رشده، واختفت لديه موازين الأمور وهو من دعاها لمستقبل أفضل، ولم يشته بعدها أن يسأل عن السبب، حين تحسر على رفضها، وحين عاوده ذاك الاعتقاد أنه معذبها بالإلحاح والسؤال. أما هي فقد انصرفت على نحو خاطف كالريح تجر مشاعر الخيبة والانهازم، أما الاستسلام فقد كان يعيش بداخلها منذ مدة.

مضت في سبيل حالها مضيا أخفاها عن ناظري المحامي وسط زحمة المحطة البيضاء...

فهرس

9.....	تدعى خديجة
21.....	داخل المحطة
27.....	رجل الأعمال
35.....	حقيبة تجول
43.....	المحامي
52.....	وتجدد اللقاء
66.....	شيء من الماضي
76.....	قرار بائت

قال لي صديق ذات مرة، ونحن نحتسي قهوتنا الدافئة بجوانب الكلية، ونتفرس في وجوه الناس: «عاملة النظافة تكنس الغبار وإلى ما شابه، وتلقي نظرة على طلبة الكلية يمرون أمامها واحدا تلو الآخر، يلوحون بكتبهم وبأفكارهم المستخلصة. تحديق بعد كل نفس جديد تأخذه، لا أدري في ماذا تفكر؟ لكن الظاهر تمنيتها أن تكون مكان أي أحد من الطلاب، وربما ليس هذا ما تفكر فيه، ربما لا ترى الطلاب فقط وإنما الأساتذة، وتتمنى لو كانت مكان أحدهم... أرايت كيف نربط متمنيات الناس بمراتبنا، ولا نمنحهم حق التمني فيما هو أرفع من مراتبنا؟»



الثمن : 30 درهما